تونس في جهادها

أو

مذكرات سعد سياسي

تأليف

الشيخ محمد الصالح جراد المطوي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى عام ١٣٥٥

تونس - [مطبعة الاتحاد] نهج الباشا رقم ١١٦ - تونس

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

كلمة الاستاذ الطاهر صفر

ان محرر هاته الاسطر يعرف مؤلف هاته الرسالة في المعترك السياسي ويقدر قيمته الوطنية وغيرته على بلاده وتفانيه في خدمة المشاريع من جمعيات وجرائد وشركات فقد كان بالرغم عن تمتعه بيد واحدة يحمل جريدة « العمل التونسي » وجريدة « العمل » بعدها ويوزعها على سائر الباعة بتونس بعزم ونشاط نادرين وانا اعرفه ايضا كصديق تحلى بالخلال الطيبة ودماثة الاخلاق وقد ابعد مع جملة المعدين بمرج البوف فكان نعم الاليف ونعم الرفيق لم تؤثر عليه الصدمات ولم ينل منه الاضطهاد فكنت تراه دائما وابد مبتسما مداعبا مازحا ودائما وابدا سابحا في بحر التخيلات والتفكيرات والتأملات حتي اطلق عليه المبعدون لقب « جبران » مقارنة بينه وبين الشاعر « خليل جبران » وكان مولعا بقيد تاملاته وملحوظاته في كراس خاص وله حب في المطالعة والدرس وميل الى المناقشات العلمية واذا علمت انه كون نفسه بنفسه واجتهد في تحسين ثقافته بالرغم عن اضطراره الى التماس وسائل العيش له ولاهله قدرت قيمة جهوده وحسن اسلوبه وهو الان بعد تلك الدراسة والتجاريب وبعد ان تقلب في الحياة حلوها ومرها وذاق آلامها واتعابها وتجول في البلاد جنوبها وشمالها يبرز لنا نتيجة مطالعته وتجاريبه وتأملاته في هاته الرسالة التي نرجو منهـا الفائدة لكل قاريء بالعربية ومـا هي إلّا الخطوة الاولى التي يخطوها رجل له غرام بالايجاد والابتكار والتاليف وسعي مستمر في التحصيل والاستزادة من المعارف كثر الله من امثاله في افراد الشعب واعانـه على القيام بما هو بصدده من السعي في تثقيف مواطنيه وهدايتهم

الطاهر صفر

فهرس الكتاب

٣ مقدمة الكتاب بقلم الاستاذ حميدة بن الحاج محمد المطوي

٩ الاسباب التمهيدية لاحتلال فرانسا اتونس

١٦ كيفية الاحتلال

١٧ احتجاج سمو الباي

١٨ المعاهدة

٢٢ بعد الاحتلال

٢٣ اتفاقية المرسى

٢٦ الاستعمار والاراضي الدولية والاحباس العامة والخاصة والعروش

٢٩ الاستعمار والصناعة الوطنية

٣٢ صناعة الشاشية

٣٦ صناعة البلغة

٣٧ المنسوجات التونسية

٤٣ الاستعمار والتعليم

٤٩ الاستعمار والحركة الوطنية

٦١ المذكرات

٩٩ الى حضرات القراء الكرام

١٠١ كلمة الاستاذ الطاهر صفر

المكتبة الوطنية تونس

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

مصادر هذا الكتاب

مذكرات خير الدين باشا — مجلة الرسالة

« « سياسي قديم — « « الرابطة

كتاب الجنات — « « قدماء الصادقية

منتخبات مرشد الامة — حقايق شمال افريقيا تالف

جريدة تونس — شارل كولومب

83192
8°
11113.

تونس في جهادها

أو

مذكرات سعد سياسي

180513

تأليف

الشيخ محمد الصالح جراد المطوي

حقوق الطبع محفوظة المؤلف

الطبعة الاولى عام ١٣٥٥

تونس - [مطبعة الاتحاد] نهج الباشا رقم ١١٦ - تونس

الاهـداء

اعتـاد المؤلفون ان يهدي كل منهم كتابـه الى عظيم من العظماء او زعيم من الزعماء تقديرا لاعمالهم الجليلة ومواقفهم الشهيرة.

اما انا رأيت من الواجب علي اهداء كتابي الى شهيد روح المنستير الذي كتب بدمـه صك غلق باب التجنيس، وشهداء طبلبه، والمكنين، وقصر هـلال والبرجين.

فاليكم ايتها الارواح الزكية الطاهرة اهدي كتابي

محمد الصالح جراد المطوي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا نشك وان تونس عقيمة من التآليف السياسية في العصور الاخيرة واكبر سبب يعزى الى هاته المنقصة المخجلة التي يحمل وزرها الكتاب والمثقفون هو حب الراحة والدعة من جهة ، والجبن والخوف من جهة اخرى . ولئن صدرت بعض تآليف في بعض نواح من شؤون البلاد فهي انما طرقت ناحية واحدة لا تطفي غلة ولا تفي بغرض او انها كانت اسفار محشوة بالملق والتزلف لاولياء الاستبداد وكتمان الحقيقة وطمس معالمها .

كم كنت والله اتلهف واتحرق على وجود كتاب يضم بين دفتيه تاريخ الحركة الوطنية وما سببه الاحتلال على البلاد من النكبات والمصائب والويلات والرزايا وما يجب ان تحتاط الامة له وتحسب له حسابه - فان القوم لم ياتوا بلادنا ليرحمونا - وانما اتونا لاسترقاقنا وتفقيرنا ثم قتلنا بالتدريج . وهي الحقيقة الوضاءة التي يجب ان نكون صريحين بها امام ابناء بلادنا . وهي ايضا التي يفرض علينا القيام بالواجب ان نجابه بها اصحاب الجبروت والظلم من اولياء السلطة .

فلينتبه التونسي المسكين الى اي غاية يساق والى الهاوية

المدفوع في قاعها . وليتكل على الله ناصر الضعفاء ثم على جهود نفسه وكفاحه المتواصل وجهاده في سبيل الغاية التي يصبو اليها كل ذو نفس في هاته الحياة . وليعلم وان الاخطار محدقة به من كل جانب وان عدوه يتربص به دوائر السوء . وما ذلك إلّا باتحاد الامة وتراصها حول غايتها المنشودة ومبداها الشريف . مع تحقق الكل وان - عدو الجميع واحد -

ورحم الله الكواكبي اذ يقول:

« المستبد يتجاوز الحد لانه لا يرى حاجزا فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما اقدم على الظلم » كما قيل [الاستعداد للحرب يمنع الحرب]

المستبد يتحكم في شؤون الناس بارادته لا بارادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه انه الغاصب المعتدي فيضع كعب رجله على افواه الملائين من الناس يسدها عن النطق بالحق والدعوى لمطالبته .

المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما، والحق ابو البشر والحرية امهم والعوام صبية ايتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم اخوتهم الراشدون ان ايقضوهم هبوا وان دعوهم لبوا .

المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر، فعلى الرعية ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر مستعدة لان تقول : لا ازيد الشر ، مستعدة لان تتبع القول بالعمل . والقول الذي ليس وراءه فعل - هو موجه في الهواء، على ان مجرد الاستعداد للفعل لا يكفي شر الاستبداد

المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب. فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذللا وتملقا. وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست، بل عليها ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة المستبد ..؟ ام هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها، والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته)

فيا ايها المظلوم سامك القوم الخسف فان شممك واباؤك ..؟
واعملوا فيك الظلم والعسف فاين حزمك ومضاؤك ..؟
وسلبوك حقا من حقوقك فاين نخوتك ومجدك وعلاؤك ..؟
ولطخوا ارضك بل سمائك بموبقاتهم ومخزياتهم فكيف لا تميد ارضك وتهتز سماؤك ..

فاعمل ولا تهب صولة الظالمين الغاشمين. فللظالم صولة لا تلبث اذا عرضت على بودقة الحق ان تزول. وللغاشم دولة لا تكاد ترى جند الاقدام حتى تدول.

ان هذا الكتاب فيما نعلم هو الوحيد في بابه الذي طرق هاته المواضيع الشائكة التي لم يجسر احد من الكتاب على اختلاف درجاتهم في الشجاعة على تخضم هذا الخضم اللجب ولا طرق هاته الابواب المستحكمة.

فكم كنت اتمنى ان يحقق الله امنيتي في ظهور تأليف صريح لا مراوغة ولا نفاق ولا خداع فيه حتى وفق الله الفاضل الحازم

الاستاذ محمد الصالح ابن الحاج محمد بن الحاج بالحسين بن جراد المطوي لابراز هذا التاليف القيم الذي نقول فيه بغاية الصدق. بانه خير تاليف اخرج للناس في هذا العصر .

عرفنا المؤلف النابغة من عصر صباه وعاشرناه الى كهولته - وكيف لا نعرفه عن حقيقته وهو أليف الصغر وقرين الشباب - عرفناه يتدفق وطنية ويشتعل اشتعالا بنار الحمية، ويكفيه شهادة ما قدمه لبلاده من اجل الخدمات التي اوذي فيها اذايات متعددة كالسجن والغرامه والابعاد قابلها بالصبر والثبات فقد سجن بتونس وقفصه وقابس واخيرا كانت خاتمة المطاف في جحيم صحراء برج القصيره صحبة اقرانه من الزعماء الابرار . وسيطالع قراء كتابه هذا مذكراته الجليلة التي دونها وهو في منفاه في تلك العصور المظلمة التي قاست فيها الامة العلقم والعجرم. سيرى قراؤه الى اي حد تبلغ سفالة ابناء المدنية ونذالة رجال الحضارة الاروبية وتوحش الحاكم المهذب وقساوة بني الانسان ببني لانسان حتى يستخلص في النهاية وان الاستعمار له اصطلاحاته و مراميه . وكفى بذلك عبرة لمن القى السمع وهو شهيد.

ينحدر المؤلف ابقاه الله من سلالة كريمة واسرة شريفة تمت بعرق النسب الى السلالة الطاهرة النبوية وامتاز اسلافه الكرام بالتفاني في خدمة الاسلام والتضحية في سبيل انقاذ البلاد مما حاق بها ... ومن من التونسيين وخصوصا الاوساط الدستورية من يجهل جهاد والده الوقور الشيخ الحاج محمد الصغير بن جراد في القضية الوطنية

الذي آوذي في سبيلها بالسجن والغرامة وهو القرين الامين لحرر هاته السطور في سجنه عام ١٩٢٤ فكان مثالا للصبر والجلد وهو الذي تلاشت ثروته بسبب مطاردة المستبدين ومع ذلك لم يعبأ بها ولم يتمالك به الاسف والقنوط حتى يثنيه عن حزمه وعزمه.

فاذا راينا المؤلف قد اتى بالمثل الاعلى بضربه الرقم القياسي في الاقدام لتحقيق نوايا هامة تخالج بفؤاده. فقد خرج الدر من معدنه والشيء من ماتاه لا يستغرب.

ابتدا حياته العلمية بحفظ القرآن العظيم على اشهر المؤدبين ثم رحل الى ينبوع العلم بتونس (جامع الزيتونة الاعظم عمره الله) وانخرط في سلك نجباء طلابه وانكب في التحصيل بشغف واجتهاد وهمة عاليه وحزم نادر المثال (والحزم والصدق والاقدام اهم اوصافه التي امتاز بها) كان يقوم عند فجر كل يوم يبيع الصحف الصباحية حتى اذا فتحت الدروس بالجامع رايته في السابقين الاولين فيها. وفي المساء عند انتهائه من دروسه تراه يبيع الموز حتى اذا ما نفدت بضاعته وتحصل على نفقته رجع لبيته بالمدرسة السليمانية ينظر في دروسه ويحقق ويحبر وهكذا دواليك الى ان امتلا وطابه وصار بين اقرانه مشارا له في النبوغ بالبنان.

فقد اعطى مثالا لفقراء الطلبة الذين ينقطعون عن متابعة التعليم لعجزهم عن النفقة. واعطى مثالا للجمهور في الحزم وقوة الارادة والاستهانة بهوى النفس ومع ذلك كله فهو يشتغل بيد واحدة ولا بد وان القاري سيندهش من هذه الارادة الجبارة

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام

شارك في حركات الطلبة الاصلاحية ووقف فيها موقف الحكمة والبطولة وحرر التحاريز المستفيضة ونشرت في صحف البلاد في مواضيع اجتماعية واخلاقية وسياسية نالت اعجاب قرائها . وهذا تاليفه المجيد يشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع والشغف بالابتكار وهو ثمرة ابحاث وتنقيب قلما اهتدى اليها غيره فعلى الامة تقدير جهوده واتعابه كثر الله من امثاله العاملين والله الولي المعين.

الاستاذ حميده بن الحاج محمد المطوي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

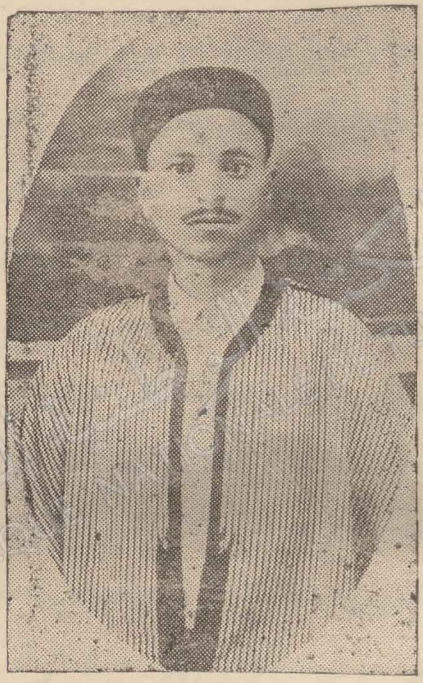

المؤلف

* محمد الصالح جراد المطوي *

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الاسباب التمهيدية لاحتلال فرنسا لتونس

اذا نظر الانسان بعين البصيرة وجرد نفسه من كل ما يحول بينها والنظر في المصلحة العامة التي يجب ان تكون فوق كل شيء في عالم مضى بجراثيم فتاكة من جنس الانسان لوجد ان سبب اظطراب العالم وانهيار الممالك وسقوط التيجان من على مفرق رؤوس اربابها قديما وحديثا منشأه حب الذات والعبث بمصالح الضعفاء الدين اوقعهم الدهر تحت سلطة جبابرة متمردين على العدل وما يتفق وروح الانسانية لا ينظرون لحقهم دونهم بعين الاخوة الصادقة والعدل الذي بدونه لا يستقيم شيئ في هذا العالم المظلم الذي كبات فيه الشعوب بسلاسل الرق والعبودية حتى اصبحت كاكرة في يد لاعبها يدفعها حيث شاء ويوجهها حيث اراد .

وسلب ما بايدي اولئك البؤساء بكل الوسائل المودية لذلك حتى اصبحوا على حالة من الفقر المؤدي بصاحبه الى الموت بعامل الجوع جتما لا الذنب اقترفوه ولا لجريمة ارتكبوها حتى يجازوا بما بلغوا اليه من الخصاصة والجوع القاتل الذي لا ينجم عنه إلّا التمرد والعصيان اللهم إلّا عدم اعتناء ولات الامور بشؤون اولئك البؤساء وحمايتهم من كل ما يحول بينهم واراحتهم الامر الذي لا ينتج عنه إلّا احدوث مشاكل متعددة بين الحاكم والمحوم

يصعب حلم التمسك كل منهـا بسيره على الطريق الذي يرى لا سبيل لراحته دون عبورها وبهاته الصورة لا يخلو الحال من احد امرين.

١) اما ان ترضخ الحكومة الظالمة الغشومة العابثة بحقوق الضعفاء لرغائب الشعب حسبما يقتضيه الواجب الانساني لتبعد عنها شبح الثورة التي هي آخر مرحلة لحياة الظلم والاستبداد واول يوم لانبثاق عصر جديد يكون الشعب هو صاحب الامر والنهي ومصدر للسلطة التشريعية والحارس الامين على تنفيذها يسير الامور بنفسه حسبما يراه صالحا لاسترجاع مجده ونشاطه.

٢) او تخلق له مشكلا تلهيه به عما وطد العزم للوصول اليه برميه في حرب طاحنة تقصف بها زهرة شبابه وتسبب ماله من مدخر حتى يصبح كالسائمة التي لا شغل لها إلّا البحث عما تدفع به الم الجوع عن نفسها ليصفى لها الجو فيما اذا قدر لها النصر وان العكس فلا يخلو الحال من احد امرين ايضا.

١) اما ان يجمع الشعب شتاته تحت راية زعمائه الذين سقلت عقولهم الضروف وهذبتهم الحوادث لمقاومة تلك الحكومة الظالمة المستبدة العابثه بحقوق الضعفاء جاعلا هدفه الوحيد تلك الغاية المقدسة الا وهي الموت في سبيل نصرة الحق وسعادة الانسانية اشرف والذ للنفس من الموت على بساط الرق والعبودية.

(٢ او تستعمر - بالضم - تلك الامة باغارة امة اخرى عليها وتضمها الى املاكها بما اعتراها من الضعف الذي تسبب فيه

المستبدون بامرهم العابثون بحقوق غيرهم طبق ما تشتهيه نفوسهم الخبيثة الامر الذي لا ينتج عنه غالبا إلا فقد الاستقلال وحلول الاستعمار مكانه الذي لا ينتج عنه إلّا الخراب والدمار مثل ما نشاهده في غير مملكتنا وبالمثال يتضح الحال.

شاءت المقادير وساعدت الظروف مصطفى (خذنه دار) بتوليته الوزارة الكبرى في حياة المرحوم سيدى احمد باي

وشاءت المقادير وساعدت الظروف ايضا بحصوله على الثقة من ملكه التي استخدمها في سبيل اغراضه الشخصية تاركا الواجب المقدس وراء ظهره

ناسيا ما سيحفظه له التاريخ وما ستحاسب عليه بين يدي ربه متصاما عن صدى نداء الشعب المستغيث به من عبث ولات الامور الذين هم تحت امره

متجاهلا عما سينتج من افعاله من فقد الاستقلال وسلب الشرف والغزة والسلطان

غير ناظر الى ذلك اليوم الذي سيتجلى فيه المولى جل جلاله ويقول لمن الملك اليوم لله الواحد القهار

فهذا الوزير الذي بسبب افعاله فقدت تونسنا العزيزة استقلالها اراني مضطرا لذكر البعض من افعاله ليتعض غيره وينظر الى مصيره ومثاله

فبالثقة الكبرى التي تحصل عليها من ملكه جعل محمود بن عياد

شريكاله ثم اعطاه دخل المملكة وخرجها - لزمة - ليمكنه من اكبر ربح وهو من وراء ذلك الرابح المتصرف

وبالفعل فان الشريكين بعد ان ملا وطابهما من اموال المملكة عشرين سنة اكتنزا فيها ملايين كثيرة حفظاها في كنوز مؤتمنة حتى اذا خافا وشعرا بخطر الافتضاح وعواقبه عمدا الى تهريبها الى الخارج حيث سهل الوزير خروج شريكه محمود بن عياد الى فرنسا تحت عنوان مرضه واحتياجه للعلاج في الخارج

وحينما وطئت قدماه التراب الفرنسي سعى في الحصول على الجنسية الفرنسية واستنجد بجنسيته الجديدة لمناوات الحكومة التونسية في تلك الساعة ومطالبة الدولة بـ ٦٠ مليونا ريالا اي ٤٠ مليونا فرنكا

ويا ليت ذلك الخائن لمليكه ووطنه اكتفى بما ارتكبه من الخيانة مع شريكه بن عياد بل عمد الى ما هو اشد بايغار صدر الملك على ذلك المصالح الكبير - خير الدين - الذي قلد وزارة البحرية ورئاسة المجلس الاكبر عام ١٢٧٤ هـ للاشراف على المصالح العامة والسير بالامة في طريق السعادة واسترجاع ما فقدته بسبب سياسة ذلك الخائن إلّا ان مدة ولايته لم تدم اكثر من خمسة اعوام سار بالامة فيها بحالة لا باس بها الامر الذي لم يرق لمصطفى خزنة دار الذي وسوس لمليكه ضد ذلك المصلح الذي اوجدته الظروف بين بطانة سوء لا يروق لها حكم مجالس الامة وقراراته المفيدة لصالح البلاد الامر الذي دعى بالمرحوم خير الدين الى الاستقالة في زمن ما احوج الامة الى امثاله

وسرعان ما اعلنت العرب الثورة من سوء تصرف بطانة السوء بما استعملوه معهم من الظلم والاستلاء والاستبداد واصبحت الحكومة عاجزة عن كبح هاته الثورة العاتية والباي ينظر الى زحف الثوار على العاصمة الامر الذي تسبب عنه قدوم مبعوث فوق العادة من طرف جلالة السلطان في مراكب حربية ومعهم مليونا فرنكا كما وصل لشاطئ تونس اساطيل كثيرة من دول اوروبا.

وفي تلك الساعة الرهيبة عرف مبعوث جلالة السلطان - حيدر ابـاد - كيف يلعب دوره في ذلك الموقف العصيب الذي اوجدته وتسببت في وقوعه سياسة - مصطفى خزندار - واصبحت البعثة السلطانية والاساطيل الاوروباوية مساعدين على تحويل مجرى الحوادث لفائدة الحكومة التونسية.

فقمعت الثورة وانتهت المسألة بوضع غرامة حربية قيمتها ١٠٠ مليونا ريالا اي ٦٠ مليونا فرنكا نتيجة افعال وزراء السوء.

ويا ليته الخائن - مصطفى خزندار - وقف عند هذا الحد متعضا بهاته الدروس العظيمة.

بل ارتكب ما هو اشد وافظع واستمر مثابرا على مشروعه الخبيث بمضايقة - المجلس المنتخب - الذي يحاول من جهته ان يصر على موقف شريف مصرا على ان لا يكون آلة تدار حسب اهواء ذلك الخائن حتى آل الامر الى الغائه وجميع المؤسسات الملحقة به.

وهكذا اسقطت البلاد من جديد تحت النفوذ والسلطة الشخصية لوزير لا يتأخر عن ارتكاب كل شيء للمحافظة على سلطته ليروي غلته التي لا تنطفي من طلب المال.

وبعد ان اتى هذا المجرم - مصطفى خزنه دار - على جميع منابع ثروة البلاد ارتمى في الاقتراض المخرب واصبحت تونس غارقة في دين قدره ٢٤٠ مليونا ريالا للدول الاجنبية ومختلف التجار بربا، يتراوح من ١٢ الى ١٥ في ١٠٠ سنويا وهكذا استمر ذلك المجرم على خراب بلاده مدة ولايته التي بلغت ٣٨ عاما.

وكانت البلاد التونسية قبل توليته تعيش في بحبوحة السعادة والعيش تسدد حاجياتها بما لا يزيد عن ٢٠ مليونا ريالا وبمجرد ما وضع يده هذا الطاغية تضخمت الاداءات الى ثلاثة اضعافها لفائدة هذا الوزير واعوانه - فمصطفى خزنه دار - قبض على حساب الميزانية السابقة قبل ان يضعفها الى ثلاثة امثالها

١٤٠٠٠٠٠٠٠	ميزانية سبعة اعوام
١٠٠٠٠٠٠٠٠	غرامة حربية
٢٤٠٠٠٠٠٠٠	قووض
٠٠١٦٠٠٠٠٠	اعانة من جلالة السلطان
٤٨١٦٠٠٠٠٠	الجملة

هذا المقدار الفاحش بالنسبة لتونس الصغيرة قد بذره خزنه

دار وبطانته بمعدل ٦٨ مليونا ونصف سنويا بل انهم اكلوها باسرع من ذلك بكثير حيث ان السنتين الاخيرتين كانوا لا يجدون فيها حتى ما يدفعونه لمخصصات اعضاء العائلة المالكة ولا للموظفين ولا للحربية ولا لمخصصات فوايض الديون.

فاضطرت المملكة التي نضبت مواردها اخر السنين السبعة الى توقيف دفع الديون، وهكذا قاد مصطفى خزنه دار البلاد الى الخراب والدمار والاستعباد.

وتداخلت فرنسا من يومئذ وطلبت تعيين لجنة مالية لتصفية الدين وحماية مصالح المدينين للحكومة التونسية وانظمت لفرنسا كل من ايطاليا وانقلترا.

فتعينت لجنة من الدول الثلاث ومن وضيفتها تحديد اي توحيد الدين وتوحيد الفائظ.

وفي تلك الساعة الرهيبة استفاق الباي من غفلته وألح على خير الدين في قبول رئاسة تلك اللجنة فلبى لدعوة الواجب وصوت الضمير وبكل الاسف ان الباي اراد ان يبقى دائما متصلا بوزيره الذي خرب البلاد وسعى بكل ما له من خبث للاسترقاق العباد.

فبعد ان تفرغ الوزير العظيم خير الدين لتحسين البلاد من الوجهة السياسية والادارية والاقتصادية وقطع دابر تدخلات القناصل الاجنبية مدة (١٠) اعوام انسلخ عنها لما يجده من العراقيل في كل امر يريده ووشاية المغرضين التي تبعته حتى بعد خروجه من تونس

الحزينة على فقد امثاله .

وبمفارقته هاته الديار ارتمى المجرم الاخر والخائن الذي لا بعده خائن يظاهيه بين احضان الممثل الفرنسي حتى اصبح القنصل ان تمنى شيء يجده طبق ما اراد الى ان بلغ الامر ان الدولة التونسية لا تعطي اشغالها العمومية إلّا للفرنسيين .

ومن تلك الساعة دخل النفوذ الفرنسي لوطننا المحبوب ولم تكد تمضي مدة قصيرة حتى بعثت الدولة الفرنسية قوة بريـة وبحريـة لاحتلال البلاد وافتكاك السلطة من يد اميرها .

كيفية الاحتلال

في الساعة التي تمت فيها الاسباب التمهيدية لاحتلال البلاد وقعت حادثة على الحدود التونسية الجزائرية كما هو الشان في سائر الحدود الفاصلة بين سائر الدول والممالك وعوض ان تسوى المشكلة بطريقة دبلماسية الامر الذي لم يجب فيه سمو الأمير في ذلك الوقت اغتنمت فرنسا تلك الفرصة وجهزت جيوشها في سهول (تبسه) واصدرت امرها بالهجوم على المملكة الترنسية من جهة (الكاف) مثلما اصدرت امرها لاسطولها باحتلال (طبرقه) و (بنزرت) .

كل ذلك وقع بموافقة الدول الاروباوية التي بعث لهم سمو الامير باحتجاجاته المتتابعة ولم يجد من بينهم للانسانية نصيرا وهذا نص احدى الاحتجاجات التي وجهت لكل من وزراء خارجية دول المانيا النمسا ايطاليا الروسيا انقلتيرا

نص الرسالة البرقية

كنا خاطبنا جنابكم بتلغرافنا المؤرخ في ٢٦ افريل في الاعلام بدخول عساكر الدولة الجمهورية الفرنسية لتراب الايالة التونسية بوجه مخالف لاصول قوانين المعاملة بين الدول واننا سجلنا على ذلك باتم تسجيل في حق أنفسنا وحق السلطنة العثمانية

والدولة الجمهورية الفرنسية كانت قررت لجناب الدول الاروباوية ولنا ان قصدها من ذلك مقصور على معاقبة - اخمير - لدعوى صدور بعض جنايات منها على حدود الجزائر ونحن لم نوافق على ذلك بوجه. ولكن الدولة الجمهورية الفرنسية ادخلت عساكرها (لقلعة الكاف) رغما على ما اعلنت به للدول، وعساكرها قاصدة الان (قلعة باجه) وهدمت ابراج (طبرقه) وحلت بالمكان المذكور وسارت بوسط عروش آخرين لا تعلق لهم (بخمير) واستولت على (مرسى بنزرت) ورفعت الاعلام الفرنسية على ابراجها ولا ندري مقاصدها في شان الجهات الاخرى من الايالة.

ونحن نستشهد المحترم نائب دولتكم الفخيمة باننا بذلنا غاية مجهودنا في السعي بارضاء دولة فرنسا الارضاء التام الممكن فيما يتعلق (بخمير) الذين اذعنوا لطاعتنا وفي حفظ راحة السكان في جميع جهات الايالة الى الان. لاكن لا نعلم ما يكون وراء ذلك.

المعـــــاهدة

في ذلك اليوم الذي انزوت فيه الراية التونسية ولازمت الحداد بعد ان كانت مرفوعة الراس موفورة الكرامة تسير امام الجيوش شرقا وغربا جنوبا وشمالا وتجلس على اريكة المجد في اعلى السفن الحربية وغير الحربية وتتمايل تيها ودلالا على رؤوس الملوك والوزراء والقواد.

في ذلك اليوم الذي امليت فيه شروط المعاهدة تحت ظل المدافع وشفار السيوف واسنة الحراب.

في ذلك اليوم الذي سيبقى ذكره منقوشـــا على صفحات الفـــــؤاد.

اي يوم ١٢ ماي سنة ١٨٨١ الذي كبلت فيه اعضاؤنا وطوقت فيه اعناقنا بسلاسل الرق والعبودية نتيجة افعال وزراء السوء وذوي الاغراض الشخصية الذين ابتليت بهم البلاد.

واحسرتا على عز ضاع ومجد قبر . واستقلال سلب بفعل وزواه السوء الذين سيبقى ذكرهم مقرونا بما يستحقون مادامت الارض ارضا والسماء سماء .

في ذلك اليوم الاغبر كتبت هاته المعاهدة وهاذا نصها :

ان دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باي تونس لما كان من غرضهما ان يمنعا الى الابد حدوث قلاقل كالتي حصلت اخيرا بحدود الدولتين وبسواحل المملكة التونسية وان يستحكما علائق وداديهما القديم وروابط حسن الجوار قد اتفقا على عقد معاهدة من شانها تحقيق مصالح كلا الجانبين السامين المتعاقدين وعليه فان فخامة رئس الجمهورية الفرنسية قد سمى نائبا مفوضا من طرفه جناب الجنرال بريار فاتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على الشروط الآتية :

﴿ الفصل الاول ﴾

ان معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الاخرى الموجودة الان بين الجمهورية الفرنساوية وسمو باي تونس قد وقع تاكيدها وتجديدها .

﴿ الفصل الثاني ﴾

لاجل تسهيل القيام بالمناسبات التي يتحتم على الدولة الجمهورية الفرنسية اتخاذها للوصول للغرض الذي يقصده الجانبان العليان

المتعاقدان فقد رضي سمو باي تونس بان تحتل القوة العسكرية الفرنساوية المراكز التي تراها صالحة لتحقيق النظام والامن بالحدود والسواحل وهذا الاحتلال يزول عندما تتفق السلطتان الحربيتان الفرنساوية والتونسية وتعترفا باتحاد بان الادارة المحلية قد اصبحت مقتدرة على المحافظة على دوام الراحة والامن العام .

﴿ الفصل الثالث ﴾

تتعهد دولة الجمهورية الفرنساوية بتخويل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن ان يهدد ذاته او عائلته او يعبث براحة مملكته .

﴿ الفصل الرابع ﴾

تظمن دولة الجمهورية الفرنساوية اجراء العمل بجميع المعاهدات الموجودة بين الدولة التونسية والدول الاوروباوية على اختلافها .

﴿ الفصل الخامس ﴾

ينوب الدولة الفرنساوية لدى سمو الباي وزير مقيم وظيفته السهر على تنفيذ احكام هاذه المعاهدة ويكون هو الواسطة في علائق الدولة الفرنساوية مع الادارات التونسية في كل النوازل التي تهم الجانبين معا .

﴿ الفصل السادس ﴾

النواب السياسيون والقنصليون لفرنسا بالبلاد الاجنبية مكلفون بحماية المصالح التونسية ورعايا العمالة.

وفي مقابلة ذلك يلتزم سمو الباي بان لا يجري اي عقد ذي صبغة عمومية من دون اعلام الدولة الجمهورية الفرنساوية بذلك والحصول على موافقتها .

﴿ الفصل السابع ﴾

تستبقي الدولة الجمهورية الفرنساوية ودولة سمو الباي لنفسه حق الاتفاق على وضع اساس لترتيب مالي بالعمالة من شأنه الوفاء بخدمة الدين العمومي والتكفل بحقوق دائني العمالة.

﴿ الفصل الثامن ﴾

تضرب غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل.

﴿ الفصل التاسع ﴾

لاجل صيانة مستملكات الجمهورية الفرنساوية بالعمالة الجزائرية فان دولة سموه تتعهد بان تمنع منعا كليا ادخال السلاح والذخائر الحربية على طريق (جزيرة جربة) و (مرسى قابس) والمراسي الاخرى بالمملكة التونسية .

﴿ الفصل العاشر ﴾

سيقع عرض هذه المعاهدة على موافقة الدولة الجمهورية الفرنساوية ويسلم سجلها بعد ذلك لسمو باي تونس في اقرب وقت ممكن .

بعد الاحتلال

قضى ربنا بان تدار شؤون بلادنا بيد غيرنا لا لقصور منا بل لما ارتكبه وزراء السوء وبطانة الاغراض الشخصية التي قاومت كل مصلح اراد النهوض ببلادنا المحبوبه قبل الاحتلال ومن اراد المحافظة على العهود وشروط الحماية بعده حتى اصبحنا على مانحن عليه من الرق والعبودية والتعاسة والشقاء الذي لم نسمع بمثله حتى في العصور المظلمة في عصر يسمى بعصر المدنية والنور عصر نشر لواء الانسانية وانبثق فجر الحرية

لبى المرحوم الصادق باي دعوة ربه وتولى بعده علي باشا باي - الذي رءى بثاقب رايه لا يصلح ان يكون له وزيرا إلّا محمد - بالفتح - خزنه دار الذي وقف موقفا شريفا ماسكا بيد من حديد على دفة سياسة البلاد يسير بها على شاطئ السلامة حسبما ارتاءته نفسه الكريمة لتبقى سيادة البلاد واضحة جلية لا يتسرب لها خلل ولا فساد وامتنع امتناعا كليا من تنقيح معاهدة باردو حتى آل الامر الى ايغار صدر مليكه عليه

من طرف ممثل فرانسا بدعوى انه معارض لكل اصلاح يريد ادخاله لتونس التي يجب ان يعتني بها اعتناء يليق بكرامتها وان يبذل في سبيل ترقيتها بما يتفق والعصر وما يقتضيه التطور الموجود في العالم المتمدن واضطر لتقديم استقالته بما يجده امامه من العراقيل في كل شئ اراده

وبمجرد تقديم استقالته خلفه الوزير بوعتور الذي قال في حقه المرحوم عبد الرحمان الصنادلي - العزيز بوعتور ما قال لا إلّا في تشهده ان قالها - ارتقى العزيز بوعتور عرش الوزارة بعد ذلك المصلح العظيم واخذ سلطة البلاد التي شرع يتصرف فيها تصرف الصبيي في لعبته الخزفية التي كلما انكسر عضو منها بادر لتكسير غيره لكن شتان بين الصبيي الذي يقصد من وراء تكسير لعبته حب الاطلاع لا العبث وعدم الاكتراث كما فعل العزيز بوعتور بمصالح البلاد كأن له ثار على الشعب التونسي اراد استخلاصه برميه الشعب وسط هاوية لاحد لعمقها وعدوله عن سبيل الرشاد .

استمر هذا الوزير على خراب البلاد وابرمت في مدة ولايته اتفاقية المرسى التي استند الاحتلال عليها في كل شئ اراد باسم الاصلاح وخصوصا الفصل الاول منها :

اتفاقية المرسى

لما كانت عناية حضرة الباي المعظم متجهة الى تحسين الاحوال

الداخلية في القطر التونسي وفقا لاحكام المعاهدة المبرمة في الثاني عشر من شهر ماي سنة ١٨٨١ وكانت حكومة الجمهورية راغبة خالص الرغبة في تحقيق مراد حضرته توثيقا لعرى الوداد الميمون الكائن بين القطرين العامرين اتفق الفريقان على عقد اتفاق مخصوص لهذا الشان واعتمد رئيس الجمهورية في ذلك على م بريار بولس كامبون وزيره المقيم بتونس الممتاز بنيشان اللجون دور من صنف اوفسي ونيشان العهد ونيشان الافتخار من الصنف الاكبر الخ

فقدم الوزير المومى اليه المحررات المؤذونه اعتماده في هذي الخطة ولما وجدت في تمام احكام الانتظام ابرم مع حضرة الباي المعظم الشروط المبينة في الفصول الاتية

﴿ الفصل الاول ﴾

لما كان مراد حضرة الباي المعظم ان يسهل للحكومة الفرنساوية اتمام حمايتها تكفل باجراء الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار اليها فائدة في اجرائها

﴿ الفصل الثاني ﴾

الحكومة الفرنساوية تضمن قرضا يعقده حضرة الباي المعظم لتحويل اولدفع الدين الموحد البالغ ١٢٥ مليون فرنكا والدين السائر الذي لا يمكن ان يتجاوز قدره ١٧٥٠٠٠٠٠ فرنكا ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك وقد تعهد حضرة الباي المعظم ان

لا يعقد قرضا في الاستقبال لحساب الايالة التونسية دون الحكومة الفرنساوية .

﴿ الفصل الثالث ﴾

ياخذ حضرة الباي المعظم من مداخيل الايالة اولا المبالغ اللازمة للقيام بمقتضيات القرض الذي تظمنه فرانسا ثانيا راتبه السنوي الملكي وقدره مليونان من الريالات التونسية اي .....١٢ فرنك ومازاد على ذلك يعين لمصاريف ادارة الايالة ودفع مصاريف الحماية

﴿ الفصل الرابع ﴾

هذا الاتفاق مكمل ومثبت للمعاهدة المنبرمة في ١٢ ماي ١٨٨١ فيما يحتاج منها الى التثبيت والتكميل ولا تتغير به التراتيب التي سيود فعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية

﴿ الفصل الخامس ﴾

يعرض هذا العقد على الحكومة الفرنسوية لتوقيعه وتعاد حجة التوقيع الى حضرة الباي المعظم بما امكن من السرعة واذانا بصحة ماتقدم حرر هاذا الرسم وختمه الموقعان بختمها .

وكتب في المرسى ٨ يونيه سنت ١٨٨٣

التوقيع: علي باشا باي
بولس كامبون

لم تكد تمضي مدة يسيرة بعد اتفاقية المرسى التي فتحت كل الابواب على مصراعيها للاستعمار يدخل من ايهما شاء وينفذ

دار الكتب الوطنية - تونس
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

اغراضه حسبما اشتهى وارد حتى تكونت الكتابة العامة التي سابت كل نفوذ واصبحت هي المسيرة لشؤون البلاد .

والاغرب من ذلك ان الاوامر العلية اصبح ينسج بردها وتنسق بنودها في كل ادارة حسب اغراضها ولا يمكن للوزير الاكبر ان يطلع عليها الا بعد اتمامها تقدم اليه كوسيط ليقدمها الى سمو ملك البلاد يضع ختمه عليها ومن يومئذ اصبحنا بعيدين عن ادارت شؤون بلادنا وصرنا غرباء في تونسنا العزيزة .

حنانيك يارب لا تواخذنا بما فعل السفهاء منا :

الاستعمار والاراضى الدولية

والاحباس العامة والخاصة والعروش

بعد ان تم للاستعمار الاستحواذ على السلطة وساعدته الظروف على بسط نفوذه المطلق في كل الادارات الدولية بعد اقصائه منها ابن البلاد شمر عن ساعد الجد لتقليع التونسى من ارضه التي بست تربتها برفاة آبائه واجداده وغرس فرنسي مكانه لتصير تونس مقاطعة فرنسية لاقدر الله واول شئ بادر باخذه بعد احتلاله كل الادارات التونسية الاراضي الدولية التى وزعها على الجالية الفرنسية مع وضع الخزينة التونسية

تحت امرها تاخذ منها كل ما تحتاج اليه لابتياع التركتورات وسائر ادوات الفلاحة والماشية وما يلزم لبناء القصور التي تأثث بكل ما غلى ثمنه وخف حمله لتتوفر لديها اسباب الراحة والرفاهية التي من غير شك تنسيها في بلادها وتصيرها لا تفكر إلّا في مضائقة غيرها من التونسيين بما تستعمله معهم من الشدة والصرامة تارة والحيل والمخاتلة اخرى بقصد سلب ما بقى للتونسيين من ارض يتمعشون منها وللمعمرين الفرنسيين اساليب وحيل اصبحت معلومة لدى العموم يتوصلون بها لاغراضهم متى قصدوا امرا منها حجز حيوانات اجوارهم من الاهالي ان وقع سهو من الراعي او الحارس التي لا يمكن لاربابها اخذها والرجوع بها الى مرابضها إلّا بعد دفع غرامة المعمر بالقدر الذي يريده والشروط التي يمليها

وقد شاهدت معمرا افرنسيا يحسب كم من عفسة على وجه الارض لتلك الماشية التي دخلت منطقة نفوذه حينما غفل السارح عنها واخذ من صاحبها ضريبة على حساب خمسة فرنكات عن كل عفسة وهل وقف الامر عند هذا الحد واكتفى الاستعمار بالاراضي الدولية بعد احتوائه على كل الادارات التونسية

لم يقف الاستعمار عند هذا الحد وتجاوز امره الى ما هو اعظم بافتكاكه اراضي الاحباس العامة التي هي وقف على الكلية الزيتونية والصادقية وسائر المصالح العامة

اخذت هاته الارض بالمعاوضة اي بمال الخزينة التونسية المتكون

من جيوب اولئك البؤساء ووزعت على الجالية الفرنسية .

والارض التى توزع على الجالية الفرنسية توزع معها الميزانية التونسية على افراد تلك الجالية قصد احيائها على زعمهم وخدمتها بالاساليب العصرية .

فالهنشير الذي كان يتمعش منه عددا لا يستهان به من التونسيين اصبح في حوز فرد .

وبماذا عوض كل هنشير من هاته الارض !!؟؟

عوض بحانوت او بلاص .

ومن الذي قوم ثمن تلك الهناشير المغصوبة بما يرضي الاستعمار !!؟؟

قوم ثمنها الحاج احمد الصنادلي .

ومن الذي افتى بمعارضة اراضي الاحباس العامة فتوة المعاوضة على ما يقال اصدرها الشيخ بلحسين المالكي .

وهل وقف الاستعمار عند هذا الحد !!؟ لا بل مد يده للاحباس الخاصة بذلك الامر الذي استصدره وتظاهرت الامة يومئذ لتوقيفه وعدم العمل به . الامر الذي لم يرق للاستعمار في هاته البلاد وارتمى على اراضي العروش التي يسكنها ويتمعش منها عشرات الالوف من التونسيين وهي ملك على الشياع لذلك العرش النازل بها او المجاور لها يحرث وترعى ماشيته فيها منذ آلاف السنين فاخرجهم . بيرتون من هاته الصفة المعنوية وكلف العرش بان ينتخب مجلسا

منه يرأسه المراقب المدني ورخص الامر للمجلس المذكور ان يعين للعرش ما يحتاج اليه من الاراضي لنفسه للحرث والرعي والبناء ورخص له ايضا ان يسوغ او يبيع ما شاط على ذلك.

وهذا الامر من غير شك ظاهره فيه الرحمة إلّا ان باطنه فيه العذاب بتشكيل تلك اللجنة الحالية من معرفة مقاصد الاستعمار الخفية التي يريد اخذها تدريجيا طبق برنامج منظم لكثرة ساكنيها الذين يخشى باسهم ان هو اخذها منهم بتمامها و كمالها في زمن لا زال دم العروبة يجري في شرايين عروقهم.

الاستعمار والصناعة الوطنية

لم يقف الاستعمار الفرنسي بما اغتصبه من الاراضي الدولية والاحباس العامة والعروش التي اصبح اهلها بعد خروجهم منها يجوبون الطرقات العامة حفات عرات لا شغل لهم يتمعشون منه ويدفعون به الم الجوع القاتل.

الجوع الذي يسير معه اينما سار ويربض معه اينما ربض كل الامراض الحاصدة للنفوس.

الجوع الذي يرمي بصاحبه في ساحة الاجرام وحمات الرذيلة.

الجوع الذي يصاب من الوجوه ماء حياءها ويجبر اصحابها على

التسول و بسط ايديهم للمارة علهم يتحصلون على ما يبتاعون به شيئاً من الطعام يبعدون به الم الجوع الذي مزق احشاءهم وصيرهم اشباحا بلا ارواح. وجوههم مصفرة كالبسرة عند دخول فصل نضوجها. عيونهم غائرة كضحية مرض السل ساعة النزع. اعضائهم ترتجف ارتجاف غصن في مهب الرياح. اذا خاطبك احدهم بقوله - شيئ لله يا عبد الله - او - يا كريم متاع الله - ترى شفتيه ترتعش ارتعاش قدر بولغ في اضرام النار تحته وفي منع تسرب بخاره. لا فراش لهم إلّا الارض ولا غطاء لهم إلّا السماء.

ترى من كانت بالامس ملكة في دارها تحوط بها هالة من الخدم ينشرح صدر كل من اسعده الحظ منهم بتنفيذ امرها عارية الجسم إلّا عورتها مستورة بخرقة بالية لو سألتها لاجابتك من المزابل التقطها. تحمل رضيعا على صدرها صراخه احتجت له ملائكة الارض والسماء من شدة الم الجوع الذي حبس اللبن عن ثدي امه وصيرهما كخرقة بالية متدلية على صدرها. وآخر على كتفها مطوقا جيدها بكلتا يديه ومسندا رأسه على رأسها لا تسمع منه إلّا كلمة.. آه اماه ان الجوع مزق احشائي و كاد ان يسلبني حياتي.

وترى البنت البكر التي كانت بالامس لا تعرف للجوع معنى ولا للخصاصة سبيلا. تلك البنت التي كانت كزهرة في حديقة شاعر عديمة المثال والنظير. تلك البنت التي كانت كوردة بين ايدي عشاقها

تتناولها الايدي للشم والتقبيل تسير وسط الشوارع سير من يشيع وحيدا حول مضجعه الأخير مطأطئة الرأس متقدية الجبين.

وترى الرجل الذي كان بالامس ينام على السرير ولباسه الحرير لايركب الا على متون الخيل مفضضة اللجم مذهبة السروج يسير وسط الشوارع محدودب الظهر منكس الرأس لافكر له ولا شغل الا البحث عما يسكت به المعدة عن احتجاجها من شدة الم الجوع الذي اضرم في داخلها نار الحما المصمة للاذان التي امست لاتسمع الا طنينا والمخرس للالسنة التي امست عاجزة عن النطق حتى صرت لاتسمع من اصحابها عوض الكلام الا تنهدا وانينا .

وما اعظم فرحته حينما يقع بصره على شئ من نواضل الخضر الملقاة في المزابل التي يرتمي عليها بمجرد وقوع بصره عليها ارتماء الباز على فريسته.

ولقد شاهدت من هاته المناظر كثيرا حتى صرت عاجزا عن التعبير والافظا بوصف ما اصبح عليه هؤلاء المساكين لا لذنب اقترفوه حتى يجازوا بما هم عليه ولا لجناية ارتكبوها اللهم إلا ظالم الاستعمار الفرنسي لهم بافتكاكه ارضهم وانتزاع ما يقون بخدمة تلك الارض وزرعها وفي قصورا للاستعمار بها بما بقى لهم من الثروة من طريق الضرائب الدولية حتى صاروا على ما هم عليه في زمن لا ترى فيه من ابناء الاستعمار إلا من كان يسكن قصرا

ينا طح السحاب ارضه بالرخام مفروشة ومغطات بالزرابي المبثوثة. اينما وجهت نظرك نحو جدرانه لا ترى إلّا وجهك .

ينا مون على اسرة مفروشة بما غلا ثمنه وخف حمله . يتلذذون بالاستماع لملاهي كل مدن العالم بطريق الموجي اللاسلكي . يبتسمون للايام و الايام تبتسم لهم و كل من دخل محله منهم عند رجوعه من ترويض نفسه على متن سيارة من اعلا طراز في المتنزهات العمومية التي انشئت خصيصا لهم لالسواهم او في سينما او تياترو تتسارع لاستقباله الخدم هاته تتناول قبعته و تلك معطفه و اخرى تجثو على ركبتيها جثو العابد لمسح حذائه او خلعه و تعوضه بما يناسب حالته التي اراد ان يكون عليها و اخرى تضع على بدنه بدلة الصباح او المساء او السهرة.

هاته صورة مصغرة من حياة الاستعمار الفرنسي الذي قدم لبلادنا على حالة كاد ان يكون عاري الرأس حافي القدمين. فهل وقف الاستعمار عند هذا الحد ؟ لا بل تمدى على اتمام برنامجه باخذه معول الهدم الذي قوض به صرح الصناعة الوطنية.

وما معول الهدم إلّا عدم حمايته لصناعتنا من الواردات الاجنبية وها نحن نسوق امثلة من ذلك.

صناعة الشاشية

صناعة الشاشية من اعظم الصنائع الوطنية التي امتازت بالحسن

والجمال وكثرة الانتشار والرواج في سائر الأقطار العربية .

كان عدد المشتغلين بهاته الصناعة قبل الآن يربو على ٤٠٠٠٠ الف عامل وعاملة فالبنت تشتغل بهاته الصناعة لتتحصل على ما يحقق لها إتمام ما هي في حاجة اليه من الحلي والكسوة وما يوفر عيلها راحتها بعد زفافها الذى هو مطمح انظارها ومنبع سعادتها .

والمرأة لتقوم بشؤونها وزوجها وابنائها ولتصون ماء حياء وجوههما .

والرجل يعمل لحفض كيان عائلته ودفع الاخطار عنها اما اليوم قد اصبح عدد المشتغلين بها لا يزيد على ١٢٠٠٠ الف وهذا العدد الضئيل الذى هو بشبر خراب ودمار قد اصبح يرى شبح المجاعة واقفا على رأسه ويسترحمها عليها تحن او ترحم وترثي لحاله تمد له يد المساعدة باعانة تساعده على ابعاد شبح المجاعة عن نفسه وسائر من هم تحت كفالته .

وما الاعانة والمساعدة التي يتطلبها الا توقيف الشاشية الأجنبية عن الدخول لبلادنا .

فهل ليت الحكومة نداء اولئك البؤساء وحمت صناعتهم التي يتعيشون منها ؟؟؟ لا بل استمرت تنظر لسقوط تلك الصناعة العظيمة بصدر منشرح وفم باسم حيث انها لم تات لبلادنا قصد حمايتنا كما تزعم بل لتقليع التونسى وغرس فرنسى مكانه لتزول اللغة العربية ومعالم الديانة الاسلامية ويصبح كل من على ارض

تونس يحمل صليبا على صدره طبق ما وضعته في ساحة باب المدينة العربية . فلو لم يكن هذا مقصد الاستعمار الفرنسي وما اتى لاجله فما السبب في عدم اصغائه لصوت اولئك البؤساء وحماية تلك الصناعة التي كانت قبل اليوم منبع ثروة لتونسنا العزيزة واليوم اصبحت كما ترى من مزاحمة الشاشية الاجنبية لها وعدم حماية حكومة الاستعمار الفرنسي لها بعد ان سجلت على نفسها بخط يدها في تلك المعاهدة التي سطرت بنودها بنفسها واجبرت صاحب البلاد يومئذ على الامضاء عليها . وهل يوجد حماية اعظم من حماية الانفس البشرية التي اصبحت تموت جوعا على مرآى ومسمع منها ؟؟؟

ام الحماية في لغة الاستعمار هي سلب الارض وانتزاع الثروة وقتل كل صناعة وطنية والسعي الحثيث لمحو الذاتية التونسية ؟؟

فصناعة الشاشية التي اصبحت على حالة احتضار لا لتقاعس منا بل بما فعله معها الاستعمار اراني مضطرا لبيان اقسام عملتها ليتضح للانظار ما هي عليه اليوم وما سيكون المآل

١) يسلم المعلم الشواشي الصوف اولا الى الكباسة

٢) ومن بعد تكبيسه اي نسجه يسلمها الى الخياطة لتقتل العقدة مع تخييطها في بعضها

٣) ثم الى من يضع عليها النيشان

٤) ثم الى الباطان للتلبيد

٥) ثم الى القلفة وهؤلاء عندهم اناس اخرون يعملون تحت امرهم وهم ـ القرداشة ـ

٦) ثم الى ـ القلفة ـ لتحسينها

٧) ثم الى عاملات ليضعن عليها العلامة الداخلية ويخيطن لها الكبيتش

٨) ثم الى الصباغ

٩) ثم الى القولابجي

١٠) ثم الى النفاض

١١) ثم الى الكبات

١٢) ثم الى من يشتغل صناعة التقرطيس

انظر الى هاته الصناعة العظيمة كم لها من عامل وعاملات ففي اي مكان هم الان يا ترى ؟؟؟

الرجل زج بنفسه وسط البطالين الذين يطلبون من الحكومة صباحا مساء ايجاد خدمة يشتغلون بها ليتحصلوا من وراء عملهم على ما يدفعون به الم الجوع القاتل ويحافضون على ما بقي في وجوههم من ماء الحياء والحكومة من جهة ندائهم متصامة غير شاعرة بما سيصدره عليها من الاحكام المناسبة لافعالها باسط الارض ورافع السماء

والمرأة التي ابقى لها الدهر شيئا من الصحة نهي في دور الاجانب واليهود تمسح الارض والمراحيض

والفتـاة تحمل ابن الاجانب واليهود تتفسح به في الحدائق العمومية بعد اتمام شغلها عندهم وكثيرات منهن يجبرن على نزع برقع الفضيلة والشرف والحياء .....!!؟؟

هاته الامور كلها نتيجة افعال وزراء السوء الذين تقدم ذكرهم وعدم قيام علمائنا بالواجب بصفتهم ورثة الانبياء فالى الملتقى ايهـا الوزراء والعلماء فسنتقابل جميعا بين يدي الله في دار الجزاء

صناعة البلغة

ان هاته الصناعة لها شان عظيم في بلادنا وعدد المـشتغلين بها يربو على ..... الفا من ابناء - الحـاضرة - والقيروان - وسوسه - وصفاقس - ونابل - وبنزرت - وقابس - وماطر - وزغوان - قد قتلها الاستعمار الفرنسي بعدم حمايته لها من الاحذية الاجنبية وخصوصا ما يرد لبلادنا لمضايقتها من انواع السبيدريات من البلاد اليبانية ولطالما استغاث اربابها بالحكومة لتحميهم من الاخطار الجسيمة المـحدقة بصناعتهم التي بحياتها حياتهم والعكس فذهب نداؤهم كصرخة في واد

والاغرب من ذلك انهم طلبوا من الحكومة ايجاد اسواق لها في المـستعمرات الـفرنسية فلم يحض مطلبهم بالقبول وبقت الـمراقيل موضوعة امام صناعة البلغة بعد مزاحمة البضائع الاجنبية لها بكثرة الاداءات الجمركية عند دخولها للمستعمرات الفرنسية مع اعفاء بلغة الجزائر من الاداءات الجمركية عند دخولها للبلاد التونسية ...!!؟؟

المنسوجات التونسية

من المعلوم لدى كل انسان ان المملكة التونسية كادت ان تمتاز على غيرها من الممالك الشرقية بكثرة منسوجاتها الصوفية والحريرية والقطنية مع متانة النسج وحسن الصنعة التي جعلت لتونس اسما عاليا بين شقيقاتها الممالك الشرقية ولذا نريد في هذا الفصل ان نبحث على الاسباب التي صيرت المنسوجات الحريرية على حالة احتضار وهل احتضار المنسوجات الحريرية ناشئ عن عدم اقبال الاهالي عليها ام من الاستعمار الذي اراد قتلها لتلتحق بشقيقتها ليصنع لها تابوتا واحدا يحملها الى مرقدها الاخير .

ولذا يجب عليك الانتباه لما ستقراه وبعد انتهائك من تلاوته اصدر حكمك بما يامرك به الضمير . واعمل لاعلاء شان بلادك رغم العراقيل الموضوعة امامك التي صيرتك على بصيرة من مآلك .

منذ زمن ليس بقصير وارباب صناعة المنسوجات الحريرية يطالبون الحكومة بحماية صناعتهم التي يتمعش منها ما يزيد على ٤٠٠٠٠ تونسي رتطورت هاته المسالة حتى صارت حديث النوادي والمجتمعات الامر الذي خشي الاستعمار عواقبه في تلكم الساعة واضطر الى استصدار امر علي في ١٧ فيفري ١٩٣٢ لحماية هاته الصناعة الوطنية من المنسوجات الاجنبية والميكانيك . واحتوى الامر على ثمانية افصال وجب علينا ذكرهم مع بيان الاداء الذي

جعل على كل فصل من هاته الافصال الثمانية قبل ان نتعرض للادوار التي لعبت في سبيل عدم تنفيذ هذا الامر الذي استصدرته الحكومة يومئذ لتظهر للاهالي على حسب ما جاء فيه انها جعلت صورا قويا لخيابة صناعتهم لتطفي نار احتجاجاتهم المتصاعدة نحو السماء وما هو في الحقيقة الا ذر الرماد على العيون .

وهاته الافصال كما هي في الامر العلي المتقدم ذكره

عدد الافصال	بيان الافصال	ما يبني عليه المعلوم	مبلغ المعاليم
٨	الفوطه من الحرير الصناعي	القطعة	١٣«٥٠
	« الطبيعي	«	٣٥«٠٠
	التقريطه من الحرير الصناعي	«	٦«٠٠
	« الطبيعي	«	١٣«٠٠
	السفساري من الحرير الصناعي	«	٣٥«٠٠
	« الطبيعي	«	١١٠«٠٠
	الجبه من الحرير الصناعي	«	٣٥«٠٠
	* الطبيعي	«	١١٠«٠٠

وبمجرد صدور هذا الامر اطمانت نفوس العملة ارباب الصناعة لاعتقادهم وانه سيكون لهم حصنا يقيهم شر المنسوجات الاجنبية والميكانيك بالعاصمة طيل المدة التي عينت فيه وما دروا ان ذلك الامر

استصدرته الحكومة لتسكين غضبهم فقط وان الواردات الاجنبية وصناعة الميكانيك تضاعف نشاطها ببقائها رائجة في جميع الاسواق معفاة من كل اداء نص عليه الامر العلي بدليل ان الاسوام التي تباع بها اقل بكثير من الاداء الموضوع عليها في الامر العلي الصادر في شانها واليكم بيان ذلك

ذهب ذات يوم نفر من الصنائعية الى القمرق بعد صدور الامر فوجدوا صندوقا من المنسوجات الحريرية الصادر في شأنها الامر به ٨٦٠ قطعة لم يوضف عليه من الاداء المنصوص عليه في الامر العلي الا ٨٠ » صانتيما .

فذهب جماعة من الصنائعية للحكومة يشتكون لها من عدم تطبيق الامر العلي على الواردات الاجنبية فاجابتهم ان هاته مسالة من خصائص مدير القمرق فذهبوا تو الى مدير القمرق وطلبوا منه تطبيق امر صاحب البلاد فما كان جوابه لهم الا قوله (اذهبوا الى بايكم تفاهموا معه)

فكونوا بعد تلك المقابلة وفدا منهم وذهبوا الى المرسى لمقابلة - سمو الباي - و بمجرد ما مثلوا بين يديه اعلموه بما اتوا من اجله فقال لهم سموه سننظر في المسالة ونبعث الى المقيم . ثم من بعد ذهبو الى السفارة لمقابلة المقيم فما كان منه الا قوله سننظر في المسالة . وهو من بعد احالها على ادارة المال فسوفتهم هاته الادارة واحالتهم على القسم الاول فذهبوا لمقابلة رئيس القسم الاول واضنه سي بن

عبد الله وخاطبوه في شان الامر الذي يجب العمل به لحماية الصناعة الوطنية فاجابهم بقوله ان اصحاب السلعة عندهم رباط في تلك السلعة من قبل صدور الامر هذا من جهة الواردات الاجنبية

اما صناعة الميكانيك بالحاضرة الداخلة تحت الامر ولا يوجد لها سبب يصيرها في مامن منه كما تقدم في الواردات الاجنبية

فاليكم صورة تمثيل دورها .....!!??

بعث ارباب الصناعة واحدا منهم لابتياع - بيعه افط - البيعة اربع قطع من مصنوعات الميكانيك بالحاضرة فاشتراها بثمن اقل من الاداء الموضف عليها في الامر وفاتورة البايع شاهدة على ذلك فذهبوا تو الى من له النظر بالقسم الاول واعلموه بالمسألة فسوفهم وقل لهم سنبحث - وهل يلزم بحث يحتاج الى طول مدة مع وجود فاتورة البائع - وبعد تلك المقابلة بعثوا واحدا منهم لابتياع - بيعه سفاسر فاشتراها بثمن اقل من الاداء الموضف عليها في الامر العلي كما تشهد بذلك فاتورة البائع التي ذهبوا بها الى المكلف بالقسم الاول فسوفهم ايضا وقال لهم سنبحث فرجعوا له بعد مدة تمكنه من البحث في القضية فما كان جوابه لهم إلّا قوله - التجارة حره ولكل واحد الحق في بيع منتوجاته بالسعر الذي اراده - فاين الامر الصادر من سمو ملك البلاد ولماذا لا يطبق حسب نصوصه ....

ام الامر العلي الذي يصدر من صاحب البلاد لا يقع العمل به إلّا فيما يضر التونسيين ....

وهل الاوامر العليه صادرة عن رضية عن سمو ملك البلاد ؟؟؟
ام طبق ما تشتهي حكومة الاستعمار ..!!؟؟؟

انقضت مدة الامر العلي التي هي ثلاثة سنين وطلب ارباب الصناعة من الحكومة تجديد مدة الامر مع تطبيق نصوصه بما يتفق والحقيقة حيث انه لم ينفذ في المدة التي اصدر لاجلها فاستعملت حيل كثيرة لبقاء ورود المنتوجات الاجنبية التي كانت سببا في قتل الصناعة الوطنية مع منتوجات الميكانيك بالحاضرة واليك بيان بعض حيل استعملتها الحكومة لتكون جسرا تمر عليه الواردات الاجنبية التي ستقضي على اولئك الرفقاء بالشقاء والتعاسة حتى الموت لانهم من جنس غير مرغوب فيه في نظر الاستعمار والا ما السبب في عدم حماية تلك الصناعة التي بحمايتها حماية عشرات الالوف من الانفس البشرية .

والحيل التي استعملت لقتل تلك الصناعة واصحابها هي - ان الامر العلي لايمكن انطباقه على الفصول المذكورة في صلبه الا ما كان من تلك الفصول المذكورة عرضه كذا وطوله كذا اما ما زاد طوله او نقص على القدر المقرر ولو بجزء يسير جدا فلا سبيل لانطباق الامر عليه وما زاد على العرض المقرر او نقص ولو جزءا يسيرا جدا لاينطبق عليه ايضا .

والحيلة الاخرى هي ان الافصال المذكورة في الامر العلي اصبحت تدخل للابلاد من غير اداء بتلك الحيلة الغريبة وهي عدم

قطع - السفاسر والجبائب - من بعضها وبقائها قطعة واحدة لتجتاز الشمرك معفاة من الاداء بصفتها - فضلة - ولا يقع فصلها عن بعضها الا بعد مرورها على الشمرك الذي تجتازه على الصفة لقتل المجموع بمصلحة الفرد . وهذا هو نفس البرنامج الذي اتى به الاستعمار الفرنسي لبلادنا وشرع في تنفيذه من يوم وطئت قدماه ارض بلادنا بكل ما اوتي من حيلة .

اما بقية الصناعات الاخرى لم يبق الا اسمها وبقى اصحابها لا شغل لهم يتمعشون منه ويدفعون به الم الجوع عن انفسهم بل دأبهم الوقوف امام دور الحكومة لالتماس صدقة والسعيد منهم من تحصل عليها وهي بالنسبة للمحتاجين لا تتجاوز واحدا في المائة .

وكم مقدار هاته الصدقة التي من اجل السعي للحصول عليها تتورم الاقدام التي كانت قبل اليوم لا تعرف للحفاء معنى ولا للعراء سبيلا ؟؟؟

هي خمسة كيلو سميذ او روز وليترة زيت ياخذها ذلك المسكين في كل شهر .

وهل هاته الاعانة او الصدقة التي لا تكفي - دجاجة - تحفض حياة ذلك المسكين .

ولو سلمنا بان الاستعمار ثبت لديه ان ١٦٦ غراما من السميذ او الروز ٣٠ غراما من الزيت تدفع الم الجوع على من تحصل عليها فمن اين له الوقود والخضر ولوازم الطبخ وما يدفع به

الم البرد عن نفسه واجر محل سكناه ؟ ؟ ؟

الاستعمار والتعليم

للاستعمار طريقة خاصة فيما يتعلق بالتعليم خارج حدود بلاده .

واسلوب خاص لتنفيذ برنامجه الاستعماري وسط المدارس التي يجعلها باسم نشر الثقافة في الممالك التي يريد تمهيد سبل احتلالها .

ولذا تراه دائما يبحث في مسالة التعليم بالبلاد التي يقصد امتصاص ثروتها من طريق التجارة او الشركات التي يكونها بها لاستمالة اهلها تدريجيا بما يظهره امام اهلها من حبه للعدل والمساوات وغير ذلك من الامور التي يتظاهر بها اثناء تعليمه لنشء تلك البلاد التي ان لم يرزقها الله برجل مصلح ينقضها من الاشراك التي نصبت لاصطيادها داخل المدرسة لوقعت فريسة باردة في يد الاستعمار .

ولاجل التعليم عقدت في القارة الاوربية المؤتمرات العديدة وتداول البحث فيها فيما يجب عليه سلوكه في تعليمه بالمدارس التي يشيدها خارج حدود بلاده لتنفيذ اغراضه الاستعمارية .

والنقتصر الان على بيان اسلوب التعليم بالمستعمرات ليكون الشعب التونسي على بصيرة من مصيره ويستعد لمكافحة الجهل بكل ما اوتي من حزم ونشاط ليزيل وسمة العار عن

وجهه ويبرز نفسه امام العالم برأس مرفوعة وقامة منتصبة بانفة آبائه واجداده الكرام .

كان الاستعمار قبل القرن التاسع عشر لا يسمح بتعليم الاهالي مع اضطهاده لكل متعلم ومحو اسمه من عالم الوجود . ففي اميركا الجنوبية عند ما ثار الاهليون على الاسبانيين بما يجدونه من سوء المعاملة وعدم اتباع طريق الانسانية كتب القائد العام الى مليكه يبشره بانتصار جيوشه على الوطنيين (الذين ما ثاروا الا من شدة الظلم الذي نفذ صبرهم من احتماله)

ومما قال في تلك الرسالة التاريخية

«انه عامل المتعلمين من ابناء البلاد معاملة العصاة وقضى عليهم قضاء ومحاهم محوا وانه استاصل بهاته الصورة فكرة التمرد والعصيان من جذورها استاصالا تاما »

وفي اميركا الشمالية كان يحضر في الولايات المتحدة الاميركية تعليم الزنوج القراءة والكتابة وكل ابيض يعلم زنجيا يعاقب بالسجن والجلد هاته طريقة الاستعمار في اول امره لا يريد من الاهالي الا ان يكونوا كذوات الاربع لا يصلحون إلا للعمل تحت كرباج الاستعمار واصناف تعذيبه كما حدثنا بذلك م فليسيان شلي عندما زارنا وشاهد كل ما تحت سماء بلادنا او يرمي بهم في ساحة الوغى اثناء حروبه وفي اوائل القرن التاسع عشر عدل الاستعمار عن خطته السلبية نحو تعليم الاهالي لاحتياجه اولا الى متعلمين من ابناء البلاد يوفرون عليه

اسباب الراحة في دور مشاريعه وثانيا ليزرع في نفوس الاهالي ما يحقق له جلبهم واندماجهم في جنسيته ليقضي بسياسته هاته على الجنسية الاهلية

وقد استعسل الاستعمار الفرنسي في الجزائر كل مجهوداته لتحقيق هاته الغاية وبذل في سبيل الحصول عليها كل نفيس فما انشئت المدارس وخصصت لها الاموال الطائلة الا لهذا الغرض ولذلك جعل اللغة الفرنسية قطبا لكل درس ومما جعل لابناء الجزائر في تعلمهم وجوب حفضه والعمل بمقتضاه - ما يترتب على أهل الجزائر من الواجبات نحو فرانسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم والعدل الذي ادخلته الى بلادهم والامن الذي نشرته في ربوعهم ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم ... الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرانسا والاحترام الذي يجب ان يظهروه نحو العلم الفرنسي -

زعم الاستعمار ان بهاته الطريقة يمكن له ابتلاع الشعوب التي اوقعها الدهر تحت حكمه ... ولكن قد خاب قصده وما استعمله نحو الاهالي عن سوء نية رجع ضده فلو لم يكن نظر الاستعمار قصيرا لا ينظر الا للماديات لما سلك هاته الطريقة وعدل عن سياسة العدل والاخوة الصادقة التي يمكن له بها دوام الارتباط مع من هم تحت نفوذه الذين عوض ان يأخذ بيدهم حتى يصيروا في المستوى اللائق بكرامتهم ليكونوا له نعم الحليف والنصير حيث ان دوام الحال

من المحال

وخصوصا الاستعمار الفرنسي الذي التجأ اخيرا الى استعمال برنامج تعليم بشمال افريقيا الغرض منه تفريق الشعوب الافريقية عن بعضها وان اتحدت في الجنس واللغة والدين وتنصيرها دفعة واحدة مثل ما فعل بالمغرب الاقصى بتحريم اللغة العربية على البربر التي هي لغة دينهم والكتاب المقدس ليصبحوا متفرنسين وما فعله مع اخواننا المغاربة سيفعله مع غيرهم ولنكتفي بهاته النظرة العامة القصيرة ولنتحدث على التعليم ببلادنا العزيزة ووطننا المفدى

ذكرنا في فصلنا الاول من كتابنا هذا ما قاساه ذلك المصلح العظيم - خير الدين باشا - في سبيل النهوض بالبلاد وفك عقالها وما وجده من العراقيل من اولئك الخونة في سبيل تنفيذ برنامجه الاصلاحي وها نحن نذكره الان بمناسبة تعرضنا للتعليم بالمملكة التونسية وهكذا شان الرجال العظام لا يخلوا من ذكرهم مكان

لما باشر هذا الرجل العظيم خطة الوزارة الكبرى عام ١٢٩٠ بعد تصفيته لتلك الديون التي كان قسم عظيم منها راجعا للخونة من رجال الدولة جزاءلهم من الدائنين على عقد القروض المغنية للمرابين المفقرة للتونسيين رأى بثاقب رايه ان لانهوض لتونس الا بالتعليم الصحيح وارسال البعثات الى الشرق والغرب لاتمام معلوماتها والتخصص لكل فيما ذهب لاجله

ورأى ان مدرسة المهندسين التي اسسها احمد باشا الاول ساءت

احوالها بعد وفات صاحبها وغير موفية بالمقصود نسعى في ايجاد المدرسة الصادقية ـ اسوة بما قام به ـ محمد على باشا ـ وابنه ابراهيم باشا ـ بمصر وذلك بارساليات الى الخارج للحصول على التعليم الثنوي والعالي والاختصاصي

ولهذا اسست المدرسة الصادقية ـ وسار التعليم في بلادنا خطوة مباركة حتى قاربت ثمرته النضوج بوجود ارساليات في الشرق والغرب من ابنائها إلّا ان المقادير ارادت معاكستنا باحتلال بلادنا وبمجرد ما وطدت قدامها الاستعمار الفرنسي ارض تونس ـ سعى سعيا حثيثا لمسخ برنامج التعليم بالكلية الصادقية وتصييره لا يصلح إلّا لاخراج مترجمين ليتصل بهم لتنفيذ برنامجه فبعد ان كانت المدرسة الصادقية تدرس فيها اللغة العربية والتركية والايطالية والفرنساوية رجع بها الاستعمار الفرنسي الى الوراء حتى اصبحت لا يدرس بها إلّا اللغة العربية والفرنساوية بدعوى ان العلوم الاخرى جعل لها ـ الليسي ـ و ـ العلوية ـ ولهذا قامت حملة عظيمة من فقيد الوطن ـ علي باش حانبه ـ وصحبه طالبين تصييرها ثانوية ك ـ اللسي ـ ولم يتحصل على رجوع التعليم بها بصورة تمكن التلميذ بعد عام من استكمال دروسه هناك من المشاركة في امتحان ـ البكلوريا ـ الا بجهد جهيد هذا من جهة الكلية ـ الصادقية ـ التي اراد الاستعمار طمسها بمجرد احتلاله بلادنا

وبالبت الاستعمار الفرنسي لما وجد في البلاد رجالا يذبون عنها ويضحون في سبيل راحتها كل نفيس حسن سيرته معنا وسلك مع

الامة التونسية طريق الاخوة الصادقة التي بها تمتلك القلوب بل عمد الى ما هو اشنع واقصر على تشييد المدارس بقدر ما يتحصل على ما يقومون بحاجياته وبقي الشباب يجرب الطرقات لايجد اين يتعلم مع ان تلك الميزانية التي فتحت ابوابها لغيره تكونت من الضرائب التي باشر دفعها من يوم كان في بطن امه تلك التي وضعها الاستعمار على مأكله ومشربه ولبسه وفراشه واستمر الاستعمار على سلوك سياسة المعاكسة لرغائب التونسي بعدم تشييده المدارس اللازمة للبلاد ولحد الساعة لم نتحصل حتى على تعليم سبع من هم في حاجة الى التعليم من شبابنا الذي بقي يجوب الطرقات والاغرب من هذا ان الاستعمار الفرنسي منعنا من تشييد المدارس الاهلية بعدم سماحه لنا بذلك وما وجد منها لا يفي بالمرغوب

والاغرب من ذا وذلك سنه ذلك القانون الذي حرم على من لا يتحصل على الشهادة الابتدائية بمجرد بلوغه الخامسة عشر من عمره التعليم بالمدرسة الدولية وهو يعلم قبل سواه ان سبب عدم حصول التلميذ على الشهادة الابتدائية قبل بلوغه الخامسة عشر من عمره هو السبب فيه لما عرف به التونسي من الذكاء الذي قل ان يماثله فيه انسان

فهل نبقى على ما نحن عليه ..... ؟؟؟

وهل ترضى نفوسنا بمشاهدة مئات الالاف من ابنائنا يجوبون الطرقات بعد ان احرمهم الاستعمار الفرنسي من التعليم بقبضه على اعنة الحكم في بلادنا والتصرف في ميزانيتنا وصرفها فيما يرجع عليه

بالرفاهية في الوقت الذي بحث فيه اصواتنا وبلغ صدى احتجاجاتنا عنان السماء طالبين منه صرف جانب من الميزانية على تعليم ابنائنا الذين اصبحوا من دون سائر البشر محرومين من لذة التعليم في بلادهم مع الزامهم بدفع مصاريف تعليم غيرهم من ابناء الاستعمار بما فرض على مأكلهم ومشربهم وملبسهم من الضرائب الدولية الامر الذي دهى لتفقيرهم وذريهم حتى اصبحوا على ما هم عليه الان يمشون على الارض مشي من لا ناصر له ولا معين ؟؟؟

وهل يلذ لنا العيش امام هذا المنظر الرهيب منظر ابنائنا وفلذة اكبادنا يتعلمون تعاطي كل رذيلة في الشوارع عوض التعلم في المدارس التي شح بها عليهم ليبقوا آلة في يد الاستعمار يسيرهم حيث شاء في سبيل اغراضه ؟؟؟

الاستعمار والحركة الوطنية

بينا فيما تقدم نبذة من افعال الاستعمار الفرنسي وما هي - بالنسبة لافعاله في تونس - الا قطرة من بحر اردنا اثباتها ليتضح للقارئ الاسباب التي تكونت من اجلها الفكرة الوطنية ودخلت تونس في جهادها المستمر سعيا وراء استرجاع مجدها الضائع وعزها المندثر .

واول صيحة صدرت من ابنائها في وجه الاستعمار الفرنسي كانت يوم ٢١ رجب سنة ١٣٠٢ ذلك هو اليوم الذي تقدم فيه فقيد

الوطن المرحوم الشيخ محمد السنوسي أمام الشعب وخاطب الوزير الاكبر العزيز بوعتور بقوله :

« ايها الوزير الاكبر انا قد حضرنا بين يدي وزارتكم بالنيابة عن عموم الاهالي بمقتضى وكالات مكتوبة وممضاة من آلاف الخاصة والعامة سلموها لنا وعينوا فيها حدا لمطالبهم وهي :

١) ـ تعميم الانتخاب البلدي وجعل الاعضاء متساويين لا اعتزاز لشق منهم بسلطة الحكومة عن الاخر

٢) ـ ايقاف تيار الاوامر المخالفة لروح البلاد وتربيتها واحساسها وثروتها خصوصا ما يتعلق بالاموات والدفن .

٣) ـ ردع شركة ماء العاصمة التي اعتزت بالاحتلال فاخذت تستبد على مشتركيها وحتى على الذين وجدتهم يستقون من قبل

٤) ـ ارجاع القلم العربي لمكانته الاصلية لدى جميع مصالح الحكومة .

٥) ـ ايقاف تيار عزل والغاء الموظفين بدعوى الاستغناء عن وظائفهم لاحلال الاجانب في مجالسهم تحت عناوين جديدة . »

فما كان جزاء هذا الرجل العظيم نائب الامة التونسية في ذلك العصر إلّا ابعاده عن العاصمة الى قابس كما ابعدت رفيقه السيد حسونه بن مصطفى الى الكاف بعد ان صدرت الاوامر بعزل جميع من شاركه في القيام بالواجب نحو وطنهم العزيز عن وظائفهم وخمد صوت المعارضة يومئذ لشدة الصدمة إلّا ان الفكرة الوطنية التي هي شبيهة بالنور

استمرت في سيرهـا تنير باشعتها سبل السعادة امـام الشعب لينظم صفوفه ويستانف العمل من جديد للوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي الذي اراد ابتلاعه بعد تجريده من املاكه وثرته ولغته ودينه ليصير من آكلي لحم الخنازير حتى قيض الله له من اخذ بيده وسار به شوطا بعيدا مع بنا. استحكامات تقيه عبث العابثين فمن هـذا الزعيم الذي ظهر في تلك الايام المظلمة وحمل منار الوطنية بعد ان تدرع بالصبر والثبات وتمنطق بالعزيمة في بلاد اصبحت كغابة مظلمة باشجارها المناطحة للسحاب لا يسكنها الا السباع المفترسة وكل اصناف الثعابين والذئاب تتسارع لافتراس كل من وقع عليه بصرها لتحرمه نسيم الحياة ؟؟؟

هو فقيـد الوطن المرحوم الاستاذ محمد البشير صفر الذي غرس الفكرة الوطنية في قلوب تلامذته الكثيرين عند انهيـالهم على دروسه الدافقة غيرة ووطنية .

ذلك الزعيم العظيم الذي كان يضيف لحيـاته التعليمية بالمدرسة الخلدونية عمله التحريري بجريدة (الحاضرة) وخطبه العمومية التي كان يقيمها على اساس مقارعة الاستئثار حتى ارتسمت في الافكار الشهـامة والصراحة والوطنية الصحيحة التي لا يخشى صاحبها ظلم الظالم وعبث المستبد

فهذا الزعيم لم يكتف بتحريره في جريدة (الحاضرة) الذي مدحه عليها فيلسوف الشرق وابو نهضته (جمال الدين الافغاني) حينما اتصل

بها وقرا مقاله تحت عنوان «المضحكات المبكيات» وقال لمن حوله من العظماء ـ هذا كاتب تونسي ـ ولا بدروسه وخطبه التي اوجدت لنا رجالا عضوا على الحركة بالنواجذ حتى وصلتنا بل تجاوزها الى الكتابة في الصحف الفرنسية بتونس وباريس للمناضلة عن الاسلام والمسلمين في مشارق الارض ومغاربها منها فصل ادرجه في جريدة «لا دبيش الجزيان» في سنة ١٩٠٥ اثناء رحلته بالجزاير في الرد على كاتب ارمني رمى المسلمين بالتعصب الديني فكان لهذا الفصل رنة عظيمة في الجزاير وتونس والمشرق وتناقلته الصحف الكبرى في الشرق والغرب . ذلك الفصل الذي قامت به الادلة على براءة المسلمين مما ترميهم به اعداءهم. وقد تنبا هذا الرجل العظيم بما تقاسي الامة اليوم في خطابه الذي القاه يوم وضع الحجر الاساسي لتكية العواجز بين يدي كل من المقدس المبروز محمد الهادى باشا باي وم. لوبي رئيس الجمهورية الفرنسية حيث قال « وسعوها وسعوها فانها ضيقة الارجاء قليلة الزوايا لان سياسة الاستعمار اليوم منذرة بالفقر العام..» وهاته الخطبة كانت سببا في ابعاده عن الحاضرة تحت ستار ارتقائه من رئاسة جمعية الاوقاف الى ذلك الوظيف السامي ـ عامل ـ بسوسة وما هو في الحقيقة إلّا ابعاد من العاصمة التي هي المركز الرئيسي للحركة الوطنية التي من حسن الحظ لم تؤثر فيها عواصف الاستعمار التي وجهت نحوها في اشخاص قادتها الكرام قصد ازالتها ومحو آثارها من الوجود

أما تلاميذه الذين اخذوا عنه الفكرة الوطنية قد لازموا السير على الطريق التي رسمها لهم ووقفوا في وجه الاستعمار وقفة المستميت في حب بلاده الامر الذي لم يرق يومئذ لرئيس الاستعمار - ديكرنير - فطلب من المقيم العام م. لبتيت ضربهم ليصفو له الجو فامتنع هذا من ذلك وبامتناعه نظم له خصمه رئيس الاستعمار حملة صحافية ضده حتى كاد ان يزعزع مركزه فاضطر المقيم العام الى الاستنجاد بشخصية بارزة من الفرنسيين ليساعد بينه وديكرنير رئيس الاستعمار فاشترط هذا ان لا يرجع في حملته ضده إلّا بعد ضربه الشباب التونسي في الصميم وبعد مدة يسيرة حدث مشكل الترامفاي الذي كونه الشعب ضد جور الشركة العابثة بحقوق الوطنيين عام ١٣٣٠ فضحى يومئذ م. لبتيت باستقلال وظيفه ودخل تحت اوامر رئيس الاستعمار بابعاده رجال تونس الاستاذ علي باش حانبة صاحب جريدة « التونسي » ودفين الاستانة والاستاذ عبد العزيز الثعالبي والاستاذ محمد نعمان خارج حدود البلاد والاستاذ قلاتي (الجزاير والسادة علي كاهية (باردو) الشاذلي درغوث (الجنوب) الزمرلي (الكاف) وبعد ابعاد هؤلاء السادة من طرف الاستعمار التحق الاستاذ محمد باش حانبة دفين المانيا باخيه ليشاركه في خدمة تونس في الخارج وجاهد بعد خروجه في سبيل بلاده جهاد الابطال حتى قامت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ م تلك الحرب التي قدم التونسيون لمساعدة فرنسا جزرا للسيوف ووقودا للكرات النارية اكثر من ٦٥ الف مقاتل قتل منهم نحو

الاربعين الفا كانوا فداء لفرانسا بارواحهم يوم بالغ الاستعمار في النماق وبدل جلد النمر بصوف الخروف ويقول ان الادارة التونسية ستكون بعد الحرب شكلا آخر وان التونسيين سيتمتعون بجميع الحقوق التي تتمتع بها الامم المستقلة الى غير ذلك من المواعيد التي كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء التي معها توزعها على الامم المهضومة ترغيبا لهم في القتال الى جانبهم وبالاخرة كانت مواعيد بدون حساب يبذلها اناس كانت تجول في محاجرهم دموع التماسيح وهم يقولون هلموا ايها الابطال الى القتال في جانب فرنسا لنصرة الحق على الباطل وانفروا خفافا وثقالا لمكافحة الامة الالمانية المتوحشة الغشومة التي تريد استعباد الامم حال كون مقصد فرنسا وحليفاتها من هاته الحرب هو رفع سلطة القوي عن الضعيف وايتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال فما زالت هاته المواعيد تبذل وتلك الالفاظ تتكرر حتى انتصرت فرنسا ومن معها وانتهت الحرب وقضي الامر فقلب الاستعمار الفرنسي ظهر المجن وتناسى جميع تلك الوعود ونكث بعامة هاتيك العهود وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم في سبيل نصرتهم ان ذلك النصر كان عليهم لا لهم وانهم انما اعانوا على انفسهم وشاركوا في تخريب بيوتهم بايديهم . وانعقد مؤتمر تونسي جزائري من الاساتذة : صالح الشريف ، محمد باش حانبة محمد الاخضر بن الحسين ، محمد الشبير (عن تونس) ، محمد مزيان التلمساني . محمد ديراز الجائري . حمدان بن علي الجزائري (عن الجزائر)

بجنيف وقدم رسالة الى مؤتمر جمعية الامم عام ١٩١٨ م تتضمن استقلال تونس والجزائر كما انه بعث برسالة برقية يوم ٢ جانفي عام ١٩١٩ الى ويلسن يطالب فيها استقلال الجزائر وتونس وفي هاته السنة توفي زعيمنا العظيم محمد باش حامبه في المانيا كما توفي شقيقه علي باش حامبه بالاستانه ومن بعدهما ابي نداء ربه سيدي صالح الشريف وثارت خواطر التونسيين هنا وغلت قلوبهم فطلبوا من فرنسا انجاز ما سبق من وعودها وذكروها بالقتلى الذين ذهبوا منهم في سبيلها ولذا استقر راي الوطنيين هنا على ارسال الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى باريس ليذكر الفرنسيين بوعودهم التي قطعوها على انفسهم للشعوب التي ضحت بارواحها في سبيل نصرتهم فما كان جزاءه إلّا ارجاعه لتونس مكبلا على متن باخرة وزج به في اعماق السجون الى يوم محاكمته لاجل تاليفه كتاب « تونس الشهيدة » وبعد خروجه من السجن يوم ١٩ رمضان عام ١٣٣٩ جمع الأمة حوله واعلن بتاسيس « الحزب الحر الدستوري التونسي » ومن ثم سار في طريق استرجاع العز المسلوب والحق المغصوب بكل ما اوتي من شجاعة وما عهد فيه من رصانة وثبات وحب لبلاده التي اوذي في سبيلها غير مرة ولم يزده اضطهاد الاستعمار إلّا ثباتا وحب للتضحية بكل نفيس

وقبل مبارحته لتونس سرت الفكرة الوطنية في شرايين الشعب سريان الكهرباء في الاجسام وتغلغلت في اعماق القلوب ولولاها ما ضحى

سمو اميرنا المرحوم محمد الناصر باشا باي بعرشه يوم ٤ افريل ١٩٢٣ تضامنا مع امته وتاييدا لمطالبها الشرعية التى لا يمكن لاي انسان العيش بدونها على بساط الارض . واليكم الاسباب التى حملت اميرنا المرحوم على ذلك :

اقترح على سموه ان يستقبل مندوب جريدة « الجرنال » الباريسية ليتحدث معه باسم جريدته ولم يكن من عادة الباي ان يستقبل الصحافيين ولكن الظروف حملته على ذلك فحدد موعدا لمقابلة المندوب وقبيل هذا الموعد وفدت الى القصر دائرة سمو الامير المعظم ودخل المندوب على الملك وقدمه الوزير الاكبر بصفته الصحافية فوجه الى سمو الباي سؤالا عن الدعوة الشيوعية في تونس فاجاب سموه لامكان للشيوعية في بلادي وليست الاعتبارات التى اقتضت وجودها في الروسيا موجودة في بلادي ولا الاحوال متشابهة وفوق ذلك فان الشعب التونسي شعب متدين وعريق في الاسلام وهو بعيد عن الاباحية وهدم التقاليد

وهنا قام سمو الباي وصافح المكاتب ايذانا بانتهاء الحديث وفي صبيحة اليوم التالي صدرت جريدة « لادبيش تونزيان » وفي صدرها رسالة طويلة منقولة عن جريدة « الجرنال » الباريسية خلاصتها ان سمو الباي ينكر وجود امة تطالب بالدستور انكارا باتا ثم تقول هناك افراد قلائل من الناقمين المقلقين للراحة يريدون الاصطياد في الماء العكر واقلاق راحة الجمهور اريد ان الفت اليهم نظر الحكومة

والجمهورية الفرنسية وارى من مصلحة البلاد كبح جماحهم بكل صرامة وشدة - وكان سمو الباي يطالع جريدة « لاديبش تونزيان» في كل صباح وقد طلب الجريدة في هذا اليوم اربع مرات فكانوا يغالطونه ويأتونه بصحف اخرى واحيانا يظهرون أنها لم تات وأنهم ارسلوا في طلبها .... ولكن في المساء بلغه الامر الواقع وعلم ان الحديث الذي اخذ منه عن الشيوعية انقلب الى حديث ضد الدستور والامة التونسية فغضب غضبا شديدا ودعى كبير وزرائه - الطيب الجلولي - وامره باصدار تكذيب لما نشر في الجريدة فاجابه الوزير الذي اراد ان يتمم تمثيل دوره ضد الامة التونسية كما فعل وزراء السوء من قبله بقوله ان الموضوع لا يعد وان يكن سخف صحف اعتادت ان تنشر الاكاذيب ولا داعي للرد عليها ...!!! فقال سموه (ان الجريدة نسبت الي اقولا لم تصدر مني وفيها تحريض ضد البلاد التونسية وهذا اعتداء على مقام الباي وعرشه واحداث للفتنة بينه وبين شعبه ولا بد من تكذيبها فورا) ووعد الوزير .... سمو الباي بان يكذب الحديث في اليوم التالي ولكن لم يصدر التكذيب بالرغم عن الحاح سمو الباي في ذلك.

وبعد ثلاثة ايام انتقل سمو الباي من قصر الشتاء الى قصر الصيف وكان اول افريل ١٩٢٢ وبعد ان استقر به المقام دعي المقيم العام وقال له - ابلغ حكومة الجمورية بان باي تونس تخلى عن العرش - فارتبك المقيم العام وحاول استرضاء سمو الباي فقال له

ـ انتهى الامر ولم تعد بيني وبينك علاقة بعد الان واذا ارادت حكومة الجمهورية ان تتفاهم معي فيمكنها ان ترسل غيرك ـ فخرج المقيم العـام وهو مضطرب اضطرابا شديدا واستعمل كل الوسائل لاسترضاء سمو الباي واخفاء الحادث ولكن علم الشعب يومئذ وقـام بواجبه في سائر انحاء العمالة.

ولكن وا اسفاه قد خاننا الزمان وشاءت المقادير ان يفارقنا ملكنا المحبوب الى العالم الاخر بعد هاته الامور بمدة يسيرة ودخول عوامل التفرقة بين من كنا نحسبهم رجال الامة وقادتها المخلصين واحس زعيم الامة يومئذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي بمضائقة شديدة وفتور من تلامذته وغرس يده فبرح الوطن المقدس في احرج المواقف واشدها خطرا وكان من واجبه عدم الخروج وان سيق به الى المشنقة .

سافر الشيخ عبد العزيز الثعالبي من تونس المحتاجة الى امثالـه الى الشرق الغني برجاله العظام وزعمائه المخلصين وانزوت الحركة الوطنية بعد خروجه بالرغم عن تغلغل الفكرة في اعماق القلوب وان ظهر ما يدل على وجودها فكطيف شوهد في عالم الاحلام ولم تكـد تمضي مدة يسيرة بعد خروجه عام ١٩٢٣ حتى انفتح باب التجنيس على مصراعيه وبفتحه اراد الاستعمار الفرنسي ان يقضي على الدين الاسلامي ولغة القرآن العظيم والذاتية التونسية واعانه على ذلك علماءنا واصحاب شريعتنا .. لا سامحهم الله ـ بسكوتهم وعدم تلبيتهم

للامـة التونسية التي استغاثت بهم ليصرحوا بحكم الله في المتجنس بالجنسية الفرنسية بعد نبذه احكام الشريعة الاسلامية خوفا من غضب الاستعمار وفقد ابتسامته التي ضحوا في سبيل المحافظة عليها بشرفهم وعصوا في سبيل بقائها خالقهم الذي جحدوا حكمه ومن شدة حرصهم على الحطام الفاني ان طبع الله على قلوبهم ونسوا او تناسوا وقوفهم بين يدي ربهم ورحم الله الشيخ محمد عبده القائل :

ولكن دينا قد اردت صلاحه * مخافة ان تقضي عليه العمائم

واستمر الاستعمار على سيره بعد ان شد ازره ارباب العمائم والاجواخ في سبيل تحقيق مرغوبه بعد فتحه باب التجنيس وسكوت من يزعمون انهم علماء وحملة الشريعة الاسلامية على صنيعه.

واستصداره اوامر عام ١٩٢٦ لمقاومة كل من اراد ان يـاخذ بيد الحركة الوطنية ويسير بها الى الامام وقضى على ما بقي من الثروة التونسية باساليبه المعروفـة حتى اصبح التونسي عوض ان يشتغل بالحركة الوطنيـة يبحث عما يدفع به الم الجوع عن نفسه بعد خروجه من ارضه وقتل صناعته وموت تجارته حتى عام ١٩٣٣ برز من وسط الامـة اشبال دفعوا بانفسهم وسط منطقة العمل المنتج وميدان الكفاح الذي امتلكه الاستعمار الفرنسي وعززه بكل ما له من قوة حتى انعدم كل معارض لتياره الجارف وصاحوا في وجهه صيحة من رفرفت راية الحق على راسه

تلك الصيحة التي ارتبك منها فكره وارتعدت لها مفاصله حتى

صار يفكر في تسطير برنامج هجوم يمكنه من قتل الحركة الوطنية التي فاجأته واحتار منها بعد ان كان يضنها من المقبوريـن وما درى ان الحركة الوطنية لا يمكن لها ان تموت وان ظهر ما يدل على عدم وجودها احيانا فما ذلك الخمود إلّا لتسترد ما فقدت من قوة مع استزادة قوة اخرى عليها ليكون دفاعهـا في المستقبل اقوى واحسن اسلوبا لما تحصلت عليه من التجارب وما شاهدته من عدم الوفاء بالوعود التي تقطع بين آونة وخري لقادتها

وفي آخر لحظـة من غيبوبته التي انتبـه منها مرعوبـا بادر لاخراج امر ١٩٢٦ الذي استند عليه وبعث باولئك الاسود زعمـاء الامة الى الصحراء الخالية من النبات والماء العامرة بالعقارب والحيات ظنا منه انهم سيرضخون لحكمه الجائر واستبداده القاتل ولكن خـاب ظنه واصبحت منطقة الابعاد التي اختارها لهم لكون لاجسادهم جحيما نعيما يتلذذون به بانشراح صدورهم لما قاموا به من الواجب المفروض عليهم في هاته الحيـاة وتحملهم لكل ما صب على رؤوسهم من العذاب بكل صبر وثبات عابئين بوعوده ... ووعيده

واصبحت منطقة الابعاد معيارا للوطنية ورسوخ العقيدة كما ستراه في المذكرات

وما البطل إلّا من برز في يوم الشدة ضحيا بكل عزيز في ساحة بيع النفوس

وما الربان إلّا من مسك دفة سفينته وسار بها الى شاطئ السلامة

وسط الاعاصير والزوابع معتمدا في ذلك بعد الله على جسارته وعبثه بالحياة حتى اقتدت به نوتيته وفعلت كفعله حتى صار وسط جمع يماثلونه في الشجاعة والاقدام

كذلك الزعيم الذي قاسى من العذاب الوانا كادت ان لا تدخل تحت حصر فبثباته وصبره على ما هو عليه يزيد في نشاط الحركة الوطنية وعزيمة الشباب الذي اضحى يتمنى ان يكون مثله

فمرحى بالتضحية الشريفة التي تكون من الفرد امة كاملة والاضطهاد الذي يكون منه الصبر صروحا للمجد شامخة

« المذكرات »

لاجل ان يكون التونسي على خلاصة من حياة بلاده السياسية والمدارج التي تدرجت فيها الروح الوطنية بما اسعره فيها نير الاحتلال وبما افتقدوه من استقلالهم الغالي وحنينهم الى حكمهم الذاتي سطرنا هاته الفصول الملمة بالادوار السياسة التي تقلبت فيها البلاد الى يومنا هذا على سبيل الاختصار والاستطراد حيث ان المقصد الاهم والباعث الاول لتصنيف هذا الكتاب ونشره وعرضه على مواطيننا الاعزاء هو تدوين مذكرات صادقة عن برزخ السحراء الذي غدا مأوى ومنفى لرجال تونس وعلمائها واطبائها وادبائها واساتذتها إلّا وهو برج القصيرة - بأسمه القديم - او برج لبوف - بأسمه الجديد تشفيا وانتقاما من عبقريتهم وليستريح طاغي البلاد وحاكمها المطاق

نائب الحكومة الفرنسية - بيروطون - على اريكة الراحة ويحوز على رضى وابتسامات الحزب الاستعماري المسيطر على الروح الادارية التونسية

فالتاريخ لا يظلم فانه سجل في احشائه المسيئ بأساءته والمحسن باحسانه ليرفعها أمانة محفوظة امام رب العباد في الموقف المهول يوم الفزع الاكبر ليستوفي الجزاء العادل

وها نحن ندخل في المذكرات التي هي في الحقيقة صحائف من صحائف ادارة الاستعمار المظلمة التي ستضاف الى ديوان صحائفه السوداء الكثيرة ونقدمها الى العالم المتمدن والى الانسانية عامة ليشهدوا على سياسة دولة تعد نفسها في مقدمة دول التمدين والادب والرقي

ولنبتدئ بالكلام عن يوم ٢ سبتمبر ١٩٣٤ وما بعده حتى نحضر بزيارتهم ونشاركهم في آلامهم ١٣ شهرا

في هذا اليوم التاريخي العظيم بينما انا في المدرسة السليمانية على الساعة السابعة صباحا اتاني احد الرفقاء واعلمني بابعاد رئيسنا الجليل الحكيم محمود الماطري وصحبه الى منطقة مجهولة فخرجت مسرعا وسرت الى النادي فوجدت الاستاذ البحري قيقة الذي خاطبني بقوله يا ابن جراد انت دائما تنطق بكلمة - التضحية - وهاته ساعة التضحية فاجبته ب - نعم انا ممن يطبقون افعالهم على اقوالهم فامرني بما تريد فقال لي آمرك ان تذهب الساعة الى الساحل ومنه الى صفاقس ومنها

الرئيس الجليل الحكيم محمود الماطري

المجاهد الكبير الاستاذ الحبيب بو رقيبة

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الى الجريد وذلك في مأمورية هامة تخص حياة الحزب ثم زودني بنصائحه الثمينة لاستعين بها على اتمام مأموريتي التي يجب ان اقوم بها بكل سرعة

ودعت رئيسي وسرت نحو القراج امتطيت سيارة حملتني الى سوسه الذى لم امكث بها الا بقدر ما تحدثت مع بعض من رجال الساحل فيما اتيت لاجله ومنها الى قصر هلال التى وجدت اهلها على حالة يعجز القلم عن وصفها لانهم سمعوا بالقاء القبض على الزعيم الاستاذ الحبيب بورقيبه في مدينة المنستير من السيد الشاذلي قلاله الذي اتاهم في ضلام اليل بعد ان احاط اهالي المنستير بالمحل الذي يسكنه ذلك الزعيم المخلص ليحموه من اعوان الحكومة وان ذهبت في سبيل ذلك ارواحهم ليستشيرهم فيما يجب عليه فعله في تلك الساعة الرهيبة فاشار عليه زعيم الحركة الوطنية بالساحل الشيخ محمد بوزويته بعدم التعرض لاعوان الحكومة وطلب منه افساح الطريق لهم ليبرهنوا للحكومة وانهم شعب يعلم ما له وما عليه وبعد ان سمع بطل المنستير السيد الشاذلي قلاله النصائح الثمينة من ذلك الشيخ الوقور رجع مسرعا واصدر امره لاتباعه بملازمة الرصانة والتعقل وافساح الطريق لاعوان الحكومة

فامتثل رفقاءه الى امره وتقدم عامل المكان طالب من السيد الشاذلي قلالة الدخول على زعيم الامة الذي لا زال نائما فامتثل لامره وبعدما استفاق ابو النهضة الوطنية واعلمه العامل بامر الحكومة طالب

من شقيقاته ان يزغردن وان يجعلن ذلك اليوم يوم فرح ومسرة

مكثت في قصر هلال نصف ساعة تفاهمت مع قادة الحركة الوطنية فيما قدمت لاجله وطلبت من الشيخ محمد بوزويته السير معي ليتفاهم مع رجال الساحل الذين هو اعرف بهم ثم ركبنا السيارة بعد ان طلبنا من السائق ان يوصلنا بكل سرعة الى الاماكن التي سماهم له الشيخ بوزويته وبعد مرورنا باهم المراكز طلبنا من السائق ان يسير بنا الى عاصمة الجنوب صفاقس

فكان دخولنا لها على الساعة الثامنة مساء فوجدناها حزينة حزن من انتزع حبيبها من احظانها وسير به الى المشنقة جزاء اخلاصه لوطنه ومحبته لشعبه من شدة الم الصدمة العنيفة التي اراد الاستعمار الظالم ان يمحي بها اثر الحركة الوطنية من عالم الوجود بتونسنا العزيزة بهجومه على زعماء الامة في ظلمة الليل وحملهم من على سرر نومهم الى الصحراء جزاء قيامهم بالواجب في نصرة الانسانية المعذبة ودفاعهم المجيد في سبيل المحافظة على لغة القرآن المقدس والذاتية الترنسية

ووجدنا الراية الترنسية المرفوعة على شرفة النادي مجللة بالسواد تناجي ناظريها بقولها - سر في طريق تحريرك ايها الشعب الكريم ولا تجزع مما حل بك وليتقدم من بينك من يحمل شارة الزعماء ويسير في الطليعة في ميدان الكفاح جاعلا نصب عينيه ذروة المجد التي لا يمكن الوصول اليها إلّا لمن سار مع العواصف براس مرفوع

الشيخ محمد ابو زويتنة

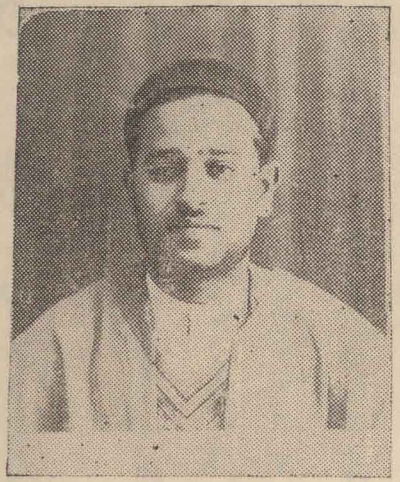

بطل صفاقس
السيد الهادي شاكر

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وقامة منتصبة وعابثا بحياة المذلة والمسكنة ومستقبلا كل مصيبة حلت بنا من الاستعمار بثغر باسم وصدر منشرح اخترقنا الشوارع الواحد تلو الاخر بين الجماهير العظيمة المتمردة على الظلم واهله حتى وصلنا النادي اين وجدنا بطل صفاقص السيد الهادي شاكر جالسا في صدر المجلس امام منضدة مطرقا برأسه قبالة صطحها كقائد عظيم بعد انتصاره فوجئ باحاطة الاعداء بجيشه واضعا كفه على جبينه مستعرضا امام بصيرته شريط الحوادث المتتابعة من اول ساعة بزغت فيها انوار الوطنية حتى اليوم

ومناجيا ارواح من ماتوا من زعمائنا في بلاد الغربة بعد ابعادهم عن وطنهم الذي حرم عليهم الاستعمار الفرنسي شم نسيمه

وبعد استفاقته من غيبوبته التي قوطعت بقدومنا انتصب قائما وسلم علينا ثم اخذ بيد الشيخ محمد ابو زويته زعيم الساحل واجلسه مكانه ثم اشار الي بان اجلس عن يمين الشيخ بوزويته وقال هات ما عندك يا ابن جراد يا حليف الزوابع

تحادثنا قليلا وبعد الانتهاء قام الشيخ ابو زويته خطيبا ليبعث في الاحرار روح الامل وشجعهم على احتمال المصائب في سبيل الواجب المقدس .

وبعد الانتهاء حملنا السيد الهادي شاكر الى محله خارج المدينة وبعد الاستراحة قليلا بلغته وصية الزعماء التي قبلها بكل سرور والتفت الى الشيخ ابو زويته يلاطفه برقيق الكلام ليزيل عن قلبه

بعض ما اعتراه من الهموم فقال له الشيخ ابو زويته - يجب الصبر على كل ما يحل بنا ولذا ارجوكم السماح لي بالرجوع الى قصر هلال ليقوم كل منا في منطقته بما يفرضه الواجب -

فامتثل السيد الهادي شاكر لقول الشيخ ابو زويته وقال له - هذ هو الصواب - وفي صباح الغد قفل الشيخ راجعا الى قصر هلال وسرت واخي الهادي الى الجامع الكبير اين اجتمع المتظاهرون والقى كل منا على مسامع الجمهور ما يناسب الموقف وما تحتمه الضروف وبعد الانتهاء سار المتظاهرون الى دار فرنسا من طرق ثلاث احتياطا لما عسي ان يقع من اعوان الحكومة المستبدة ولتحقيق وصول المظاهرة الى المكان المعين وعندما شاهد اعوان الحكومة القسم الاول من المظاهرة استعدوا لمقاومتها قبل الوصول ولمعت اعينهم ببريق الشر الذي سرعان ما زل وظهرت على وجوههم علامة الجبن بخروج القسم الثاني من المتظاهرين الذي يماثل سير واد - مجردة - وانضمامه لـ « ملاق » من طريق آخر وما هي الا لحظة حتى خرج القسم الثالث من طريق آخر واجتمعت الاقسام الثلاثة امام دار « فرانسا » التي أصبحت كزورق وسط اقيانوس وتقدم وفد من الاحرار نحو باب دار « فرانسا » فاعترضهم عامل المكان السيد سالم الصنادلي وطلب منهم تسليم الاحتجاج ليقدمه الى المراقب فامتنعوا من تسليمه له وطلبوا منه استدعاء المراقب من داخل الادارة حالا فامتثل لامرهم وقبل ان يطلب من المراقب

الحضور بنفسه ليتسلم الاحتجاج بصفته نائب « فرانسا » خاطب السيد الهادي شاكر بقوله من هذا الذي عن يمينك نتشاغل عنه بمحادثته من كان عن شماله فالتفت الي وقال

س من انت

ج انا تونسي « فاستغاض السيد العامل وقال تتهكم علي انا قلت لك ما اسمك »

ج انا دستوري « فاستشاط غيضا وقال الست انت ابن جراد »

ج لما كنت تعرفني لماذا تسأل عن شئ انت تعلمه « فالتفت عن شماله » وقال « شاوش » فما كادت هاته الكلمة تخرج من فيه حتى تفدت طليعة المظاهرة وملات الفضاء الذي كان بيننا وإياها فارتعد السيد سالم الصنادلي عامل المكان وتراجع الى الوراء بعد ان شاهد احاطة المتظاهرين بشخصين ورموه بنظرة حادة وكلف احد الاعوان باستدعاء المراقب بكل سرعة

خرج المراقب وناول السيد الهادي شاكر الاحتجاج وقفل راجعا مع اصحابه ليسير بالمظاهرة الى الجامع الكبير فلم يكد يبتعد عن دار فرنسا قليلا - حتى حمله الشعب على الاعناق وطلب منه القاء كلمة على مسامع الجمهور فامتثل وخاطب الامة الصفاقسية بقوله - ايتها الامة الكريمة يجب علينا ان نقوم بواجبنا نحو زعمائنا والوطن المقدس واستعمال كل ما نراه صالحا للقضية الوطنية ورجوع الزعماء من المنفى وان سيق بنا الى المشنقة

فالموت و الحياة عندنا سواء ..... فقوبل خطابه بالصفق والهتاف بحياة الزعماء .....

سارت المظاهرة في طريقها نحو الجامع الكبير لذكر اسم (اللطيف) بعد ان اصدر السيد الهادي شاكر امره بعدا ومة الاضراب وطلب من اخيه ان يحماني بكل سرعة على متن سيارة الى محل سكناه فسرت وشقيقه من اقرب طريق الى باب الجبلي و امتطينا سيارة سارت بنا بسرعة البرق وعند وصولنا المحل ودعني وقفل راجعا للمدينة بعد ان طلب من شقيقه الاصغر ان ياتيني بغذائي وما احتاجه من الفراش الى البيت التي خصصت لاقامتي

وعلى الساعة التاسعة مساء اتاني اخي الهادي شاكر وقال لي .. ان الامة الصفافسية اتفقت على تكوين مظاهرة في صباح الغد لتحمل احتجاجها الى عامل المكان السيد سالم الصفدلي بصفته نائب سمو الباي

وما كادت تبزغ شمس يوم ٥ سبتمبر حتى اجتمع الشعب في الجامع الكبير و كل الشوارع المحيطة به و بعد تلاوة نسخة الاحتجاج الموجهة الى سمو الباي وقع الاتفاق عليها بالاجماع وسارت المظاهرة نحو ادارة العامل وقبل الوصول اليها اعترضهم السيد العامل وقال لهم ناولوني الاحتجاج وارجعوا بسلام فامتنعوا من تسليمه له قبل وصولهم باب الادارة فامتثل لامرهم وسار في طليعتهم الى الادارة اين تسلم منهم الاحتجاج ووعدهم بتبليغه الى سمو الباي.

رجعت المظاهرة الى الجامع الكبير لذكر اسم اللطيف وهكذا كل مغلوب على امره لا له من يلتجي اليه إلّا الله سبحانه وتعالى فهو القادر على ازالت ما تقاسيه الشعوب الضعيفة من العذاب .....

على الساعة العاشرة مساء اتاني السيد شاكر مصحوبا ببعض رفقائه فافضى الي بعزمه الراسخ على تكوين مظاهرة من اعيان الامة الصفاقسية ورجالها العاملين تسير الى الحاضرة على متن السيارات لمقابلة سمو الباي والاحتجاج لديه على صنيع حكومة الاستعمار وما ارتكبته من الفضاعة الشنيعة بابعادها زعماء الامة الذين طلبوا بترجيع حقوق الشعب المسلوبة ليتبوأ المكان اللائق به تحت الشمس كما افضى الي بتصميمه على مداومة الاضراب والاستمرار على ذكر اللطيف بالجامع الكبير وهذا شان الضعفاء العزل من كل وسائل المقاومة اذا حلت بهم مصيبة لا يجدون ملجأ يلتجئون اليه إلّا الفزع الى الله ولا يطلبون سواه نصيرا فانشرح صدري لبرنامج عملهم الذي هو دليل قاطع على حيوية الامة التونسية ونهوضها واستبشرت خيرا بفكرتهم الصائبة وتفانيهم في حب وطنهم المفدى

يـــوم ٥ سبتمبر

التمست من بطل صفاقس السماح لي في الرجوع الى الحاضرة

حيث ان الضروف توجب ذلك خصوصا و اني بقيت محصورا في بيت وكل الطرق المحيطة بصفاقس سدت باعوان الجندرمة وغيرهم من اعوان المحافظة السريين قصد القاء القبض علي ولا اقدر على متابعة السير لاتمام الرحلة حتى الجريد فامتنع حضرته وقال ابق هنا حتي انظر كيف العمل و الاحسن بقاءك هنا الى يوم ذهاب مظاهرة الاعيان الى العاصمة لتندمج في وسطهم ....

قلت هذا امر لا يكون وبقائي هنا محصورا امر لا ترتضيه نفسي ومن الاحسن رجوعي الى العاصمة التي لي قدرة على العمل بها مع اخواني بالرغم عن اعوان الحكومة الذين لا يطبقون اسمي على مسماي ولا يعرفون محل سكناي ..... قال كيف السبيل لمرورك من وسطهم

قلت ناولني ـ رداء امرأة ـ فابتسم لهذه الحيلة اللطيفة وذهب مسرعا ليأتيني بكسوة المرور .....

استلمت من حضرته رداء التنكر بعد ان طاب من السيد علي ابو بكر عبد الكافي مصاحبتي الى الحاضرة بشرط ان لانسافر في احدى سيارته التي اصبحت معلومة من اعوان الجندرمة وغيرهم ..

امتثل السيد علي أبو بكر عبد الكافي لامر رئيسه وسرنا نحو القراج وستر الله علينا فوجدنا امامه سيارة كميون مشحونة بالغلة وغيرها فامتطيناها لبعد الشبهة عنها وفي غالب المراكز الموجودة بالطريق يسترق لنا السائق الاخبار عن حالة العاصمة والساحل حتى

وصلنا سوسة فاستفدنا من هناك ان حكومة الاستعمار جهزت جيشا احتلت به غالب مدن الساحل وقراها بعد استشهاد كثير من ابنائها اثناء قيامهم بمظاهرات احتجاجا على حكومة الاستعمار الظالمة الغشومة فكم ارواح سلبت واعضاء قطعت وعروض هتكت ودوع سكبت وجيوب شقت في بلاد الساحل الذي هجم عليها جيش الاستعمار الظالم وحصد نفوس ابنائها برصاص بنادقه ومترايوزه لا لشيء اللهم إلّا لكونهم تظاهروا امام دور الحكومة وطلبوا من نوابها تبليغ احتجاجاتهم المراجع العليا واستعمل معهم الاستعمار الفرنسي كل غلظة وشدة في المعاملة مع تحجير مفارقة بيوتهم بعد مغيب الشمس بقليل التي لا يمكن لهم الخروج منها الابعد انتصار النور على الظلام مع تحجير وجود الضوء فيها ويا ويح من رآى الجيش في بيته نور مصباح.

وقد بلغني ان امرأة هلالية اوقدت مصباحا بحجرتها لتناول ابنها المحتضر ما طلبه منها فما كان جزاءها إلّا ان كسر الجند باب دارها وهجم عليها وقادها الى المكان المعد لتعذيب الرجال الذين وجدوا في الطريق بعد الغروب بقليل

تصور بربك وحشية الاستعمار الفرنسي الذي استباح لنفسه الهجوم على الحرائر ربات الخدور

وتصور حالة تلك المرأة المسكينة التي سيقت الى السجن بالرغم عن احتجاجها بمرض ولدها وفلذة كبدها

وتصور حالتها عندما اوتي بها الى محل التعذيب ولسان حالها يقول رباه ما ذنب ابني المحتضر بحرمانه من النظر اوجه امه قبل مفارقته لهذا العالم الذي ملئ ظلما وجورا

رباه احفظ ولدي ولا تعجل بانتزاع روحه قبل ان اضمه الى صدري واقبله قبلة الامومة التي تستودع فيها كل ما في قلبها من حب وحنان ... رباه ان كان لا بد من فراق روحه لهذا العالم قبل اجتماعي به فاقبض روحي قبل روحه لاعترضه في العالم الاخروي بملء احضاني

وتصور حالة ذاك المريض الهالك بعد ان شاهد ما فعل الاستعمار مع امه بانارتها مصباحا تنظر على نوره آنية الماء تسقيه منها

هذا ونحن لا زلنا حائين في السير بين العاصمة وطابنة من السائق وصولنا باقصى ما يكون من السرعة فدخلناها على الساعة التاسعة مساء

ذهبنا توا الى النادي فراينا ساحة المركاض وكل الانهج المتصلة به وساحة الغنم وبطحاء الخيل تموج موج البحار من شدة ازدحام الخلائق التي اجتمعت هناك لسماع الديوان السياسي الذي تشكل بعد مغيبي ما يقرره من الامر بعد نجاح مظاهرة المرسى ومقابلة سمو الباي وما كدنا نصل الى النادي ونجتاز مجازه إلا بشق الانفس

تقابلت مع الاستاذين صفر وڤيڤه واعلمتهما بالمظاهرة التي ستصل

بعد يومين من عاصمة الجنوب صفاقس وبعد نصف ساعة تقريبا خرج الاستاذان ڤيڤه وصفر بعد ان حرض الناس على ملازمة الهدو والرصانة التي يجب استعمالها في هاته الظروف الحرجة ليتوصل الديوان السياسي الثاني لحل المشكل في اقرب وقت ممكن فهاج الشعب وماج وصاح بصوت واحد قائلا لا يمكن لنا ان نصبر اكثر مما صبرنا لا بد من رجوع الزعماء مهما كانت التكاليف .....

ذهبت الى محلي لاخذ قصطي من الراحة بعد ان ودعت رفيقي السيد علي عبد الكافي ، وما كاد النوم يتطرق الى اجفاني حتى سمعت عابر سبيل يتكلم مع صاحبه بقوله ـ الديوان السياسي الثاني لعب به بيروتون ـ

انتبهت مرعوبا وفارقت المحل بسرعة وسرت في الطريق نحو باب المدينة « باب البحر » عاني اجد من استوضح الامر منه حتى قابلني سيد فاضل من الدستوريين خاطبني بقوله [سمعت من جماعة يتحدثون بمقهى فرنسية بشارع فرانسا ان الاستاذين الطاهر صفر وڤيڤه تقابلا مع بيروتون ليلة البارحة ووقعت بينهم مناقشة حادة بعد ان طلب منهما تهدئة الشعب وإلا فسيستعمل معهما ما يراه صالحا لنجاة سفينة حكومته المحاطة بالزوابع المخطرة في مثل هاته الظروف

وقد شاركهم في الاجتماع في دار فرنسا السيد محمد شنيق الذي طلب من بيروتون ان يعدهما برجوع الزعماء بعد التهدئة وان

يقوما الاستاذان البحري ڤيڤه والطاهر صفر بما يحقق هـذا الامر وقد سافر كل من الاستاذين صفر وڤيڤه بعد استلامه جواز المرور من ساحة الجيوش الرابضة بالساحل والمحيطة باهم بلدانه]

ودعت صاحبي وسرت نحو النادي الذي لازمته مع رفقاءي لنطمن الجمهور الغاضب الساخط على الاستعمار الظالم وبعد رجوع الاستاذين من رحلة النهدئة طلبا من بيروتون الوفاء بعهده فنكث وهكذا شان الجبابرة المتمردين الذين لا عهد لهم مع من يظاهيهم قوة ، وغدر بيروتون بالاستاذ الذين قاما بما اعجز جيوشه وما لها من قوة وما درى ان غدره البس الامة الفرنسية رداء العار والغدر والخيانة وصيرها منظورة بعين الازدراء من كل الامم المتمسكة بالفضيلة والشرف الذي يجب المحافضة عليه والذب عنه بكل نفيس

وافاد الامة التونسية فائدة كبرى حيث اصبحت على علم تام بنتيجة الوعود الصادرة من حكومة الاستعمار ، وبعد غدره ونكث وعوده القى بمآت من ابناء الشعب التونسي في اعماق السجون حتى من قطعت اعضاؤهم برصاص البنادق و المترايوزات بواسطة قياصرة الافاق والذين لا يريدون من هاته الحياة إلّا ابتسامة موظف فرنسي او وسام يضعه على صدره وما دروا ان الوسام الذي يبذلون في سبيل الحصول عليه كلما تنكرة النفوس الكريمة يسلب من شرفه وجماله ويصبح على صدورهم شعار الظالم و الاستبداد وخيانة الوطن المحبوب

قد ارتكب قياصرة الافاق جرائم ويا لها من جرائم بتوجيه نوازل ضد اولئك الابرياء الذين زج بهم في اعماق السجون بدعوى لا نصيب لها من الصحة سعيا وراء ابتسامة بيروتون وثنائه على ظلمهم لكل دستوري ، خصوصا السيد حسن حسني عبد الوهاب عامل المهدية والعضو بالمجمع العلمي بالقاهرة.....!!!

قد حدثني من استثيقه من المحامين ان ملفات القضايا التي جعلت لكل من وجهت عليه تهمة خالية من روح الحقيقة وبعيدة عنها كل البعد.

يوم ١٩ سبتمبر

ذهب الطاغية بيروتون لعاصمة الجنوب صفاقس قصد التهديد واظهار جبروته فاوصدت الابواب في وجهه مدة الخمسة الايام التي بقاهم هناك واقتدت بها كل البلاد المجاورة لها كالمحرص وجبنيانة وكل المراكز المحيطة بها فاينما سار لا يجد إلّا ابوابا موصودة واسواقا معطلة ولا يرى من العباد إلّا من سار في ركابه من الموظفين وبعض اعضاء من المجلس الكبير وخليفة المكان الذي يحل به والمشائخ وامناء المعاش ، فرجع بالخيبة والمذلة ولم يتعض بهذا الدرس القاسي الذي فضحه بعد ان اعلم حكومته بقتل الحركة الوطنية ومحو اسمها من عالم الوجود.

يوم ١ جانفي ١٩٣٥

الموافق ليوم ٢٦ رمضان المعظم ١٣٥٣

احتمع الشعب بالجامع الاعظم بمناسبة زيارة سمو الباي له في ذلك اليوم وطلب من سموه ارجاع الزعماء من المنفى بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك (١)

يوم ٣ جانفي

لم يتعض الطاغية بما شاهده من غضب الشعب واستمر في طريق ظلمه فبدل استمالة رضائه باللين والحسنى واصابة رغائبه الزهيدة استمر في ارهاق الابرياء وسجن صالحي الامة وعلمائها وفضلائها الذين من ضمنهم بقية زعماء الامة وهم الاساتذة البحري ڤيقه . الطاهر صفر . صالح بن يوسف . محي الدين القليبي . الشيخ محمد كركر . الحبيب بو قطفه . ـ بنزرت ـ . الهادي شاكر . ـ صفاقس ـ وبعث بهم الى المنفى ضنا «رضنه الاثم» ان هذا الدور أخر سهم له يظرب به الامة وحركتها الاصلاحية حتى يتسنى له التبجح في نوادي باريز بانه قدر على قتل الحركة الوطنية

(١) لم يشارك كاتب هذا في المظاهرة التي تكونت بالجامع الاعظم بامر من الاساتذة صفر وبن يوسف .....

فيلسوف الشباب الاستاذ الطاهر صفر

الاستاذ صالح بن يوسف

الدكتور البحري ڤيقه

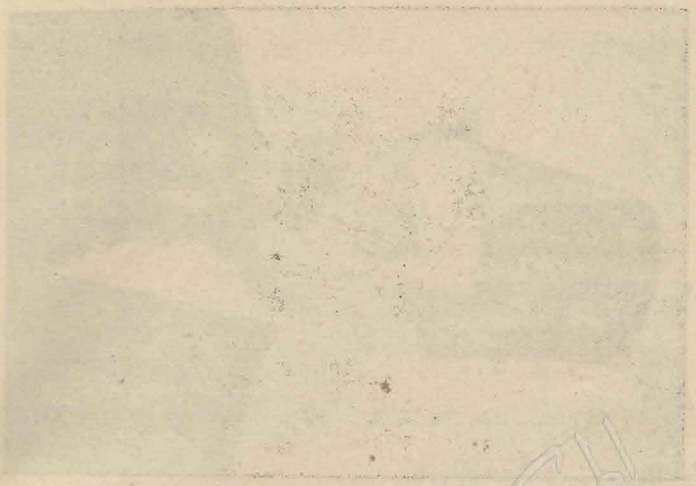

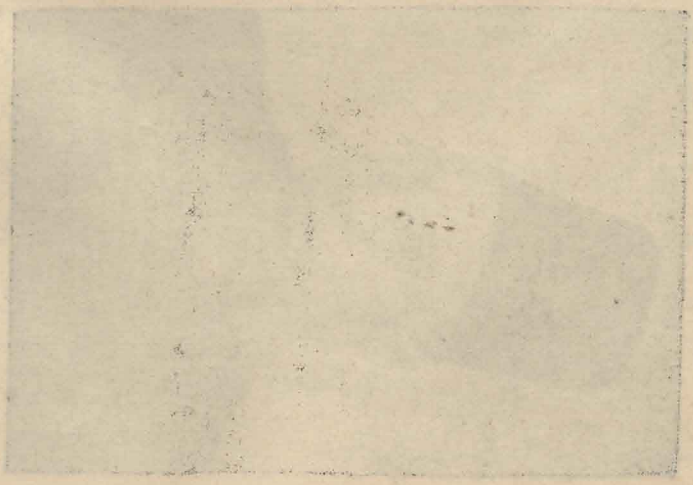

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

في تونس وانتصر عليها وهو ما درى وانه بذلك يزيد في خطورة الحالة واذكاء نار الحمية الوطنية في النفوس .

يوم ٦ جانفي

اجتمع بعض من اعضاء المجلس الملي ورؤساء الشعب ولجنة الدعاية في مكتب مجاهدنا العظيم الاستاذ الحبيب بورقيبه واتفقوا على تشكيل ديوان سياسي ثالث تحت رئاسة الاستاذ الشاذلي خير الله واصبح من يومئذ الاستاذ الشاذلي هو الرئيس المسير للحركة ....

وكان اول عمل قام به اصداره امره للامة التي طالبه بتكوين مظاهرة يوم عيد الفطر المبارك مع ملازمة الحداد حتى يرجع الزعماء ان لا نسير في المظاهرة حسبما حفضته من زعمائها المبعدين ولا يسمح لها بتكوينها الا ان يذهب الناس فرادى نحو ساحة دار فرانسا فشعرت من يومئذ بتحرج الموقف وكاتبت الاستاذ الحبيب بورقيبه واعلمته بكل شئ واستمرت المكاتبة بيني وبينه بالرغم عن مراقبة حكومة بيروطون من طريق لا يهتدي اليه حتى الشيطان الاكبر وفي كل كتاب ياتي لنا برنامج عمل جديد حسب الضروف نسير بمقتضاه

يوم ٢٦ مارس

في هذا اليوم العظيم الذي تجلت فيه الروح الوطنية باتم معانيها وبرزت للبصائر في اجلى مظاهرها وحسن جمالها ورفرفت باجنحتها

فوق المتظـاهرين الذين يربو عددهم على ٧٠٠٠٠ الفا محـاطين بزهرة الشباب الواضع على سواعده شـارة وطنية وهي فرقة كونها رؤسـاء المظاهرة وقوادها للقيام بواجب الحراسة وحفظ النظام ولسان حال هاته الجموع الجارفة يناجي الاستعمـار الفرنسي بقوله « لقد آن لك ان ترضخ للحقيقة التي طالما نكرتها وتذعن امام الواقع الذي ينزوي امامه طيف التدجيل ويهرب من ساحته سلطان الظلم والجبروت بما اضهره من آيات التكاتف والوحدة واخلاصه لحزبه المدافع عن حقوقه

انظر الى نظـام الشعب وسيره سير الجيوش الجرارة في ميدان استعراض امـام حاكم بـامره مستبد برايه عـابث بحقوق غيره يريد القائه في ميدان الحديد والنار لاستعباد غيره

تـامل في من وسمته بـالهمجية والوحشية ونسبت له كل نقيصة .

وانظر الى رصانته وصبره على اضطهادك الذي يريد ازالته بالمفاهمة ليبقى بجنبك حليفـا يدافع معك سـاعة الخطر ويضحي في سبيل راحتك ان كنت حليفا له وصديقا كل عزيز

وافتح بصيرتك لترى من يقابلون اساءتك بكل صبر وتعذيبك بجـاش لا يعرف للجبن معنى ولا للخوف سبيلا لعلمهم وان دولة الظلم ستدول وان للبـاطل ضولة ولكنها لا تدوم » ودوام الحال من المحـال »

اين نمروذ و كنعان ومن * ملك الارض وولى وعزل
اين عاد اين فرعون ومن * رفع الاهرام من بسمع يخل
اين من سادوا وشادوا وبنوا * هلك الكل فلم تغني القلل

ها قد اتاك الشعب في هذا العدد العظيم والنضام المستقيم منكسر النفس مكلوم الفؤاد من فقد زعمائه الذين رميت بهم في مجاهل الصحراء لا انيس لهم ولا سمير إلّا ازيز الرياح وعواصف الاعاصير ولفحات الحر وعذاب السموم وامام هذا المنظر الذي يملك مشاعر اولي الالباب فكانك ترى ايها التونسي ارواح شهدائك ترفرف على رؤوس المتاظهرين باسمة الثغر منشرحة الفؤاد تستقبل ارواح من عسى ان يخرق صدورهم رصاص بنادق الاستعمار لتحملها في موكب حافل الى اعلا عليين والاستضلال تحت ضلال الاشجار ومعانقة الحور العين

وكاني بها تناجينا بقولها - سر في طريق استرجاع حريتك ايها الشعب الكريم وبادر لاسترجاع مجدك ولا تحفل بكل ما يستعمله الاستعمار ضدك فستتغلب ان شاء الله على كل ظالم لانحياز الحق لجانبك وتكسر كل غل بصبرك فلا بد من يوم يغمر بلادك نور الحرية وترفرف راية العدل فوق راسك وتصير نعم النصير للانسانية كما كانت اجدادك العرب محررة الشعوب وناصرة الحق اولئك الاجداد الذين علموا العالم باسره اصول الحرية ولقنوه كيف تكون سياسة الشعوب والممالك بما يستلهموه من ديننا الاسلامي الخالد

ويستوحوه من سمو كتاب الله المجيد اولئك الذين كانت فتوحاتهم رحمة وتخليصا للانسانية من الاسترقاق والعذاب وفي التاريخ ما يقطع لسان كل معاند وجحود .

وحافض على رصانتك التى ستتوصل بها لما تعشقه نفسك وارفع الصوت عاليا امام الاستعمار وقل له اني شعب يريد ان يعيش حرا

وبرهن له على عزتك ونخوتك وقوة عزيمتك التى يوجبها عليك الاسلام

في هذا اليوم سارت المظاهرة من الحلفاوين يتقدمها الاستاذ الشاذلي خير الله رئيس الديوان السياسي الثالث وصحبه مخترقة نهج باب السويقة ثم باب البنات ثم باب منارة باب الجديد نهج الجزيرة ثم شارع فرانسا واولها تجاوز تمثال « جول فيري » وآخرها لا يزال بنهج باب الجديد

وما كادت تصل امام دار فرانسا حتى تقدم الاستاذ الشاذلي خير الله وصحبه نحو بابها وسرعان ما اوذن له في الدخول

اجتاز الاستاذ الشاذلي خير الله ومن معه باب الادارة ليقابل الطاغية بيروطون ويقدم له احتجاج الامة التى جعلت قضية زعمائها جزءا لا يتجزا من القضية التونسية ولم تكد تتجاوز عقرب الساعة الخامسة عشر دقيقة بعد دخوله حتى خرج وقفل راجعا حتى باب المدينة ومنه الى باب السويقة ثم باب سعدون ثم الى الربوة العالية المجاورة للرابطة والسجن المدني فصعد الاستاذ الشاذلي خير الله على

الربوة واحتاط به المتظاهرون من كل جهة ويعلم الله كيف قدر على تاليف تلك الكلمات التي اجاب الشعب بها عندما قال له متى يرجع الزعماء بقوله «انا لست مقيما فلو كنت مقيما لاتيت بهم» فما كادت هاته الجملة تخرج من فيه حتى صاح صبي لم يبلغ الحلم بقوله «لو كان الحبيب بورقيبه هو القائد لهاته المظاهرة العظيمة لما فارق شارع فرانصا قبل ان يعتلي على الاعناق ويقوم على الشعب خطيبا يبين له غدر الحكومة التي طالما نكثت عهودها ويستشيره هناك فيما يجب عليه ان يفعل ايرجع بالمظاهرة اكتفاء بالاحتجاج ..... ??? ام يلازم المتظاهرون الجلوس هناك حتى رجوع الزعماء من المنفى وان ذهبت في سبيل ذلك ارواحهم ???

ولكن الحبيب لم يكن موجودا الساعة ولنكتفي بنجاح المظاهرة ونشرع في العمل المفيد وهذا لايكون الابعد اجتماع من اعضاء المجلس الملي ورؤساء الشعب لاستجواب الاستاذ الشاذلي خير الله ومحاكمته ان ثبت عليه ما يوجب ذلك .....»

اجتمع رؤساء الشعب بالحاضرة مع كثير من رؤساء شعب الافاق على الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم العظيم ووقعت بينهم مناقشة حادة كادت ان تؤول الى مالا تحمد عقباه فتداخلت مع بعض الرفقاء بعد سكوتي اثناء مناقشتهم الحادة افكر في عاقبة الامر وما ستؤول اليه الحالة من بعد وتداخلنا لتهدئة الافكار طالبين من الحضور

الانصراف والاكتفاء بمظاهرة العاصمة حتى ننظر في خروجنا من هذا المازق وندبر امرنا من بعد

احس الاستاذ الشاذلي خير الله بتزعزع مركزه من جهة الشعب الذي طالبه بتقديم استقالته بعد ان كان عازما على محاكمته واصدار منشور في حقه ...

قدم الاستاذ الشاذلي خير الله استقالته بعد جلسات متعددة خاطبته في احداها بقولي - لماذا هذا التراجع وعدم السماح في تكوين مظاهرات في سائر بلدان الايالة وقبائلها (عروشها) في يوم واحد مع ملازمة الاضراب حتى يبلغ صدى الشعب مسامع رجل فرنسا الاحرار ؟؟؟ فرفع رأسه ونظر الي مليا وقال - انا ابو عائلة وابي يتناول في تقاعد وهو الان رجل كبير قريب من الموت - فقلت له - اتمنى موتك قبله في ساحة العمل لازور قبرك وانثر عليه الازهار ان رجعت عن عزمك ..... واخذت بيد شعبك

فقال لي - انت يا ابن جراد ممن وجدت اسماءهم في دواوين الحكومة (يعني بذلك وان اسمي سجل في سجل المغضوب عليهم وانها ستنزل صواعق نقمها) وهو ما ظهر بعد وهذا ما يدل على اطلاع الاستاذ على الاسرار الادارية تخبره بها قبل وقوعها .... ؟؟؟

فقلت له - للشعب والحكومة ان يفعل كل منهما ما يوافقه ! وقطعت الحديث معه وبارحت المكان

وفي هاته المدة لا تسمع في كل مكان جلست به إلا الخوض في

مآل الشاذلي خير الله مع رميه بالخيانة

اما انا فغاية ما اقوله في الاستاذ الشاذلي خير الله ان الموقف صعب عليه وليس هو من رجاله الذين يعتمد عليهم في تسيير الشعب في مثل هاته الضروف سيما وهو ممن شاهدوا منطقة الابعاد عندما زار الزعماء بعد توليته رئيسا للدوان السياسي الثالث التي هي كما قيل -

وبلدة ليس بها انيس * إلّا العيافير وإلّا العيس

فلا بذخ ولا رفاهية فيها مما تعوده بالحاضرة ولا طاقة له بتحمل صولة بيروتون الطاغية (ولا يعرف الذهب الخالص إلّا بعرضه على الصلاء) وهاته حركة قوية يتعذر قيادتها بحذق على من لم يذق من عذاب الحياة الوانا وهو لم يكن ممن تلقى من الايام دروسا حتى يستمر في سيره امام الشعب عابثا بحياة الرق والعبودية

ذهبت توا الى محل سكنتي وجلست الى المنضدة بعد ان وضعت القرطاس وتناولت القلم وكتبت الى استاذي الحبيب بورقيبة ما نصه - ..... حبيبا ان روح الشعب تناجيك وتبارك وتقول لك كن قرير العين منشرح الصدر مثلوج الفؤاد وان عيني ساهرة عليك تحفظك من كل سوء وثق بشعب يعترف بالجميل وهو ممن عاهد الله على تنفيذ تعاليمك وعدم الرجوع الى الوراء حتى آخر لحضة من حياته فالشعب لا زال يقوم بواجبه احسن قيام وان حدث مايدل على ركوده فما ذلك إلّا ليسترد نشاطه بعد تلك الصدمة العنيفة ويبرز في ميدان الكفاح بعزيمة اشد قوة واعظم وما قوة الشعب إلّا صبره

وثباته امام عواصف الاستعمار ورعود وعيده وبروق تهديده ...

قد نجحت المظاهر التي قمنا بها اخيرا نجاحا لم يسبق له نظير من جهة كثرة العدد الذي يتجاوز ٧٠٠٠٠ الفا ومن جهة حسن النظام المحكم وسيرها سير الجيش الهاجم واضعه نصب عينها دار (فرنسا) التي لابد من وصولها لتسلم احتجاجها مان ذهبت في سبيل ذلك حياتها تصور الشعب امامك وهو على هاته الصفة عندما ياتي لك نائب بيرو تون ان اراد التهكم عليك وادخال الحزن لقلبك بقوله - الشعب نساك والفكرة اضمحلت وانمحى اسمها من الوجود ولذا يجب عليك الرضوخ والاستسلام لما تمليه عليك الحكومة وإلا فسيكون حسابك عسيرا -

كن دائما مرفوع الرأس موفور الكرامة فالشعب التونسي يريد أن يكون قدوة لا عالة على غيره اه. تلميذك (محمد الصالح جراد)

ذهبت الى صندوق البريد اين وضعت الكتاب وسرت نحو مكتب الزعيم الاستاذ الحبيب بورقيبة فوجت الرفقاء يتحدثون عن جمع الزعماء في (برج القصيرة) جزاء تفانيهم في خدمة الشعب فودعتهم وانصرفت لشغلي لاسعيا وراء الدرهم والدينار في تلك الضروف بل لترويض نفسي بالعمل وراحة فكري وما هي في الحقيقة إلا هدنة ريثما يزول التعب من النفوس وتسترجع ما فقدت من قوة اثر العمل المتقدم حتى ١٢ افريل

يوم ١٢ افريل

اتاني شقيقي المكان الذي اسكنه وافضى الي باجتهاد اعوان الحكومة السريين للقبض علي فقمت مسرعا وسرت نحو رفقاءي الذين اعلمتهم بقرب ساعة الفراق وبعد ان طلبت منهم عقد اجتماع في اقرب وقت ممكن لنتباحث فيما يجب ان يدور عليه محور الحركة بعد ذهابي في هاته الضروف الحرجة وعلى الساعة العاشرة مساء انعقد الاجتماع خارج المدينة وتم الامر حسبما اوجبته الضروف

يوم ١٣ افريل

يممت دار اخي حيث وجدت شقيقتي التي هي عندي بمنزلة الام الرؤوم فما كاد يقع بصرها علي حتى نهضت قائمة على الاقدام واستقبلتني بملء احضانها وانهالت علي تقبيلا وكانت بين حين وآخر تنطق بكلام منفصل الاجزاء صادر من اعماق قلبها مشيع بخفقان كلما في البدن من اسلاك عصبية قائلة « شقيقاه ان الاستعمار الظالم سينتزعك الساعة من بين احضاني ويحرمني طلعتك فمن يتردد علي بعدك ومن يزرني ويجلي عني احزاني بعد فراقك

آه من الاستعمار الظالم كم له من جرائم فلا يلتذ له طعام ولا

يطيب لنا منام الا بعد ان يتيم اطفالا برصاص بنادقها ومتراوزها ويسجن رجالا ويبعد ابطالا ويفرق بين الطفل وابيه والاخ واخيه والزوجة وبعلها والاخت وشقيقها كل ذلك لمطالبتهم بحق مغصوب واستقلال سلب

فما اقسى قلبك ايها الاستعمار الغادر وما احرصك على نكث العهود كانك نسيت ما بيننا وبينك من عقود واحتقرتنا لضعفنا ولذا اردت محو ذاتيتنا وقتل لغتنا ومحو معالم ديننا الحنيف من عالم الوجود حتى صار المطالب بالمحافظة على ذلك يعتبر في قاموس سياستك يستحق عقاب كبار المجرمين

امن اجل تذكيرك بالعهود تيتم ابناء وترمل نساء ؟؟؟

اوهل من احتج على صنيعك لا يكون جزاءه إلّا الانزواء تحت اللحود ؟

امن اجل احتجاج على انحراف سيرك عن طريق الحقيقة تبعد ابطالا الى مجاهل الصحراء وتشبعهم لكم وضربا !!!

الا من جورك الذي لا ينتج إلّا حقدا في النفوس وتمردا في الارواح وعدم الاكتراث بما ينتاب الاشباح

شقيقاه كن صبورا على البلاء وفيا لبلادك حافظا لعهد شعبك فعين الامة التي ضحيت بكل شئ في سبيل راحتها ترعاك والشباب الذي انتزعت من بين صفوفه يحفظ ودك

شقيقاه ان الحياة في هاته الفانية حياتان حياة ذل ومسكنة وحياة

عز وشرف فاختر الاخيرة لترفع رؤوسنا بين امتنا العزيزة ولا ترضى بالدون من الحياة واصبر على ما اصابك وما يصيبك من العذاب الذي يزول بزوال وقته في سبيل سعادة الوطن الذي يجب علينا فداءه بالمهج والارواح ولا تنزعج من بكائي الذي لم يصدر عن جبن وخوف فبكائي امامك ودموعي التي غسلت محياك دموع رحمة صادرة من وحيدة ليس لها في الدنيا بعد الله سواك ولا تضن ان وصيتي اليك تدعو الى نقص فيك لا والله بل صلابتك في الحق واستماتتك في سبيل الواجب والوطن المحبوب تشهد لك بالبوطولة وما وصيتي إلّا لابرهن لك في هاته الساعة عن مقدار تعليقي بحب بلادي وحبك الذي اغار عليه غيرتي عن عرضي وشرف عائلتي والان ناولني قبلة الوداع واذهب لزبانية الاستعمار التي ارادت الساعة انتزاعك من بين احضاني » قبلت شقيقتي وقبلتني قبلة الوداع وخاصت نفسي من بين احضانها التي كادت ان تصيرني جزءا لا يتجزا من بدنها وسرت نحو دار الحكومة التي لم امكث بها إلا بقدر ما اخذ علي المكلف حالتي المدينة وناولني قرار الابعاد بعد ان تلاه علي وامضيت في نظيره

سرت مع الاعوان حتى خارج الادارة حيث وجدت سيارة في انتظاري امتطيتها مع كلف بحراستي وانطلقت بنا تسابق الريح ولما وصلنا السجن المدني واجتزنا بابه وجدت ٨٣ من ابناء (المطويـة) مسقط راسي جمعتهم الحكومة لتبعدهم عن العاصمة جزاء ما قاموا به من الوجب المقدس نحو بلادهم ووطنهم المفدى وجزاء قيامهم بحفظ

نظام مظاهرة يوم ٢٦ مارس تلك المظاهرة التي رن صداها في كافة انحاء المعمورة ولانهم في نظر الاستعمار من اعظم اعدائه لتمسكهم بالفكرة من يوم بزوغ فجرها وصبرهم على الاضطهاد في سبيل ما عهدوا الله عليه من حبهم لوطنهم المحبوب والذب عن حقوقه مع السير في سبيل استرجاع مجدهم التالد وان ذهبت في سبيل ذلك ارواحهم العزيزة فهي رخيصة في سبيل الواجب ولذا حكم عليهم بالابعاد عن العاصمة ليهدا باله ويقر قراره وما درى ان اضطهاده لهم وامتهانه لكرامتهم لا يزيد وطنيتهم إلّا اشتعالا وصبرا على كل مكروه

دخلت السجن المضيق (وهي المرة الثالثة في سبيل الحركة الوطنية) حتى يوم ١٥ افريل اتاني الكوميسار صحبة مترجم وبعد ان اخذ علي بحثا طويلا خاطبني على لسان ترجمانه بقوله (انت رجل ذو عائلة كبيرة ولا ثروة لك ولذا ارى من الواجب نصحك بان ترجع عن فكرتك وتطلب من الحكومة ما يحقق لك راحة الحياة)

فقلت له ان عائلتي رزقها على الله مضمون وان قدر لها ان تذوق الم المجاعة بعدي فعندها شجر النخيل تشرب حليبه ـ لقمي ـ مع شئ من سويقة الشعير سيما وزوجتي تحترف صناعة نسيج الصوف تتحصل منها على ما يقوم بشؤون ابنائي اولئك الصبية الصغار الذين اراد الاستعمار ان يبكيهم ويدخل الحزن على قلوبهم بفقد ابيهم

انتهى الحديث بيني والكوميسار وودع كل منا صاحبه وعلى الساعة العاشر من صباح الغدي اتاني عون من طرف الحكومة حماني الى ادارة

المحافضة مرتديا لباس السجن الذي استحال على بدني حلة ملوك عادلة امام البصائر واجلسني قبالة المأمور بادارة المحافضة الذي خاطبني بقوله (ان فرنسا لها من الاساطيل الضخمة ماصيرها في مصاف الدول العظام ولها من الغواصات واسراب الطائرات والجيوش الجرارة والاساحة العصرية المدمرة ماصيرها قادرة على فعل كل شئ تراه صالحا بها .....) فقلت له انا اعلم منك بفرنسا الحقيقة معلمة الشعوب الاستقلال براية العدل والحرية وكيفية الحصول عليها ولذا فانا احب فرنسا التي تلوث تاريخ جهادها (المكتوب بدم شهدائها الذين ماتوا في سبيل الواجب وانقاذ الانسانية المعذبة من ايدي الجبابرة المتمردين

وانا الان لست بعدو لفرنسا التي اعرفها بل عدو الاستعمار الذي شوه سمعت فرنسا الحقيقة وخلفه كما ترى... ..

فقال من الاحسن لك الرجوع عن الفكرة التي اوصلتك لهاته الحالة واطلب من الحكومة ما تشاء.

قلت لا حاجة لي بمساعدة حكومة الاستعمار - النار ولا العار - وانقطع الكلام بيننا ثم اشار للمكلف بحراستي ان يسير بي نحو السجن

وعلى الساعة التاسعة مساء فتح السجان باب حجرتي الضيقة وطلب مني السير معه مع حمل ما عندي من الفراش والملبوس الذي اخذته للسجن معي وسرت امامه حتى وصلنا فرقة من الجندرمة مع نفر من اعوان الحكومة السريين الذين تقدم احدهم فتح باب السيارة التي اعدت لحملي من خلف وحينما دخلتها قفل الباب وسارت من هناك بين

سيارات الحرس حتى الساعة العاشرة صباحا فتح الباب وفارقته ثم اخذني الاعوان وادخلوني وسط ادارة الحكم العسكري بمدنين حيث تسلم ـ الكمندا ـ ملف قضيتي من الاعوان ثم ودع من اوصاني اليه واستدعى سرجان طلب منه حضور سيارة بكل سرعة اتت السيارة التي امتطيتها مع سائقها سرجان وعون يحمل بندقية ومسدسا وسارت بنا السيارة بسرعة البرق حتى وصلنا ـ وادتطوين الذي هو آخر نقطة للعمران ومنه سرنا على طريق متجه نحو اقصى الجنوب الغربي في مجاهل الصحراء التي لا ماء فيها ولا مرعى حتى وصلنا ـ برج القصيرة ـ على الساعة الثانية مساء وما كادت قدماي تطأ ارضه حتى سيري نحو بيت اين فتشت ادباشي ومنها سيري الى مكتب ـ القبطان ـ حاكم البرج (وهو من له السلطة على بقية الابراج الممتدة الى حدود غدامس) الذي خاطبني بقوله ـ انت الان تحت السلطة العسكرية ولذا تحتم عليك اداء التحية العسكرية كجندي واتباع اوامري في المستقبل والان اذهب لاصحابك وهم يرشدونك للواجب الذي عليهم حتى اتاخذ خطاهم وتحتذي باقدامهم

هنالك اخذت طريقي وسرت نحو البيوت بسفح الجبل وهي مأوى معتقل الزعماء فلما اقتربت منها رايت الزعماء وقوفا على الابواب وعلمت فيما بعد ان السلطة حجرت عليهم مبارحة البيوت والخروج منها عندما تحل بالمكان سيارة آتية من ناحية الشمال وبمجرد سماع ازيزها يدخلون البيوت حالا وهنا ترى الزعماء يتطلعون من

خلال ابواب البيوت ويتعرفون من ياتيهم ومن الذي كتب له الحظ ان يلقى في جحيمهم ويستمر في سعيرهم فلا ترى إلا رؤوسهم ظاهرة وما كدت اقترب نحو ابواب البيوت المعدة لسكناهم حتى احاطوا بي احاطة السوار بالمعصم وانهالت علي اسئلتهم بعد التحية عن الشعب وموقفه فافضيت لهم بما اثلج افئدتهم ومزق احشاء عدوهم

لااريد ان اتكلم هنا على كل الحوادث التي قاسينا الامها ببرج القصيرة وخلفت في النفوس آثارها لعجزي بمصادمة الايام والضروف التي حالت بيني وتسجيلها كما لااريد التعرض لما صدر من بعض من حشرتهم الحكومة الاستعمارية معنا بل اريد الا اسير بكتابي في الطريق التي ارتسمتها لنفسي طبق مبداي الذي يجب ان لا احيد عنه الا وهو مقاومة الاستعمار الظالم وتسجيل فضائعه التي يجب ان تنقش على صفحات القلوب بين احضان الكتب لتتلقاها الاجيال ما دام البل والنهار ولنبدا بذكر يوم ١١ اوت ١٩٣٥ الذي امتهنت فيه كرامتنا وظهر لنا فيه وجه الاستعمار حسبما حدثنا عنه م فليسيان شالي نصير الانسانية ففي هذا اليوم ورد لرفيقنا الاستاذ البحري ثيفه كتابان كل منهما به حوالة ذات ٢٠٠ فرنكا ليستعين بها على تسديد لوازمه الضرورية فطلب منه « البطنا ڤوبيو » ان يرجعهما لاهلهما مع رجوع البريد فاحتج رفيقنا على هذا الامر المخالف لكل الشرايع والقوانين الوضعية فاغتاض « البطنا » من هذا الاحتجاج الصادر من اعماق قلب مكلوم

واصدر امره للاستاذ البحري ڤيڤه بان يباشر توا ... ربة مشحونة ترابا من مكان لاخر حتى انسلخ كفا يد ... عار على حالة تدمي الفؤاد الامر الذي دعانا لتقديم احتجاج عما اسماه « اليطنا ڤوبيو » مع رفيقنا وبكل الاسف ان كانت نتيجته الحكم بالسجن المضيق على زعمائنا من يوم ١٢ اوت ١٩٣٥ الى يوم ١٣ ديسمبر ١٩٣٥ وهم رئيسنا الجليل الدكتور محمود الماطري والاساتذة الطاهر صفر . البحري ڤيڤه . صالح بن يوسف . الحبيب بو قطفه . الذي عوض بعد مدة يسيرة بزعيم الامة الاستاذ الحبيب بو رقيبه نعم حكم الاستعمار على زعمائنا بالسجن المضيق وحشرهم وسط بيت لا تتجاوز مساحته ١٢ مترا مربع في زمن بلغت حرارة الطقس ٤٧ في الضل مع التحجير علينا القرب منهم والتحدث معهم ومساعدتهم على حمل صفيحة الماء من مكان العسة الى بيتهم التي وضعوا فيها وضع السردينة في الحقق فيا الذي يقصده الاستعمار من تعذيبهم في ذلك القبر الجهنمي يا ترى ؟؟؟

ايقصد من حشرهم في ذلك الفرن لتذويب اجسامهم ليشاهدوا باعينهم طريق الموت الذي مهده لهم ليتحصل من وراء ذلك على ابتياع ذممهم و الاستسلام لظلمه وجبروته ؟؟؟

وهل من ذكر الاستعمار بعهود يجب المحافظة عليها والسير على مقتضاها بالرغم عن املاء شروطها تحت رعود المدافع و ازيز

رصاص البنادق وصلصلة السيوف يعد مجرما يجب ابعاده لمجاهل الصحراء وتعذيبه بكل قسوة وشدة ؟؟؟

وهل من مبادي الشعب الفرنسي النبيل معلم الشعوب الضعيفة كيف يقاومون الظلم والاستبداد الرضاء بافعال الاستعمار الناطق باسمه والحاكم بامره ؟؟؟

ام فرنسا الحقيقية زال اسمها من عالم الوجود وحلت مكانها امة اخرى تسمت باسمها ؟؟؟

فما الذي يقصده الاستعمار الفرنسي من وراء تعذيبنا وتفريقنا عن بعضنا وعدم السماح لنا حتى بالنظر لبعضنا بعد ما زاد في تعذيبنا بخروجنا من البيوت ووضع كل جماعة منا في خيمة لتذوب ابداننا من حرارة الشمس زمن الصيف ويجمد دمنا من قر الشتاء ؟

ايعتقد الاستعمار الفرنسي ان بهاته الامور التي استعملها معنا يتحصل على مرغوبه منا الذي يدعونا اليه وهو نبذ فكرتنا والرضاء بكل ما يستعمله معنا في بلادنا مع الاعتراف بصلاحية سياسة بيروتون ؟

لقد خاب ظنك ايها الاستعمار الظالم وبان لك بالكاشف اننا آثرنا الموت على خيانة وطننا المفدى وضربنا الرقم القياسي في التضحية لشبابنا الذي سيتولى الامور من بعدنا فافعل كل ما لك من قدرة على فعله معنا فالتونسي سيبقى تونسي والتراب التونسي سيبقى تونسي ان شاء الله ما دامت الارض والسماء

استمرت حكومة الاستعمار على تعذيبنا كما استمر زعماء

الامة ورجالها المخلصين على موقفهم الشريف عابثين بكل ما يملكه الاستعمار معهم من الشدة والغشمة لما يعتقدونه في نفوسهم من ان الصبر على اذاه والموت ان قدر لهم في مجاهل الصحراء يزيد في قوة الشعب وسرعة سيره نحو الحرية والاستقلال الذي لا يبغي به بديلا .

ويوم ١٧ ديسمبر ١٩٣٥ زار الطاغية بيروطون من تمثلت في شخصه روح الاستعمار وتفاهم مع القبطان فيما يجب عليه فعله معنا علنا يتحصل على مرغوبه منا (وهو امر ابعد من الارض عن السماء والموت دونه التي هي غاية ما تتمناه الانفس الشريفة لتحوز على مرتبة الشهداء) ولذا اتانا القبطان يوم ٢٨ ديسمبر وطلب منا الامضاء على عريضة سلمها له رئيسه بيروطون قبل رجوعه والا فسيكون نصيبنا الابعاد في جزيرة « كيان » او داخل وسط افريقيا تحت خط الاستواء فكان نصيبه الخيبة من رجال يرون الرضاء بحكم الظالم كفرا والاستسلام لما يمليه عليهم عدو الانسانية عارا .

ورجع يجر وراءه ذيول الهزيمة من سلطان الحق الذي لا يغلب وما كاد يستقر به المقام في مكتبه حتى آذن بحضور رئيسنا الجليل الدكتور محمود الماطري وناوله العريضة بعد ان حادثه طويلا فما كاد يقع بصره على ما فيها من الشروط التي يطلب الاستعمار المصادقة عليها حتى غلا دمه وقال للقبطان الموت اشرف

والذ النفس من هذا الامر الذي عرضته علي باسم حكومتك الظالمة الغشومة التي لا تريد منا الا الاستسلام لحكمها والتسبيح بحمدها وفارق المقعد وبارح المكان وسار نحو خيمته وهو على صورة لا يمثلها الا صورة الاسد وقتما يقف امام من اراد اخذ اشباله

(اعلمني بهذا الموقف العظيم لرئيسنا الجليل الدكتور الماطري مجاهدنا العظيم الاستاذ الحبيب بو رقيبة عند ما نقل للخيمة التي اسكنها انا وشقيقه الاستاذ محمود بو رقيبة يوم ٥ فيفري ١٩٣٦)

فهل وقف الاستعمار الفرنسي معنا عند هذا الحد ؟ لا بل زاد في طغيانه وجبروته وارتكب معنا ما هو انضع واشنع من كل ما تقدم

ففي يوم ٢١ فيفري ١٩٣٦ بينما الاستاذ الطاهر صفر يوقد فابورا ليطبخ عليه عشاءه ورفقاءه وهم الاساتذة رئيسنا الجليل الدكتور الماطري البحر ثيقة صالح بن يوسف اذ بالنار اخذت بثيابه فخرج من الخيمة مرعوبا وهو يستغيث برفقائه وما كاد صوته يحل باذاننا حتى خرجنا وسرنا نحوه فاعترضنا الجندي الموكل بحراستنا وصوب افواه بنادقه نحو صدورنا بعد انذاره لنا بالرجوع الى الوراء فلو لم يمنح الله رئيسنا الدكتور الماطري قوة في تلك الساعة الرهيبة مكنته من رمي الاستاذ صفر على الارض وحث التراب على النار الصاعدة مع ثيابه التي من حسن الحظ كانت صوفا لاكلت النار جسمه وصيرته رماد

ولو لم يبذل الاستاذان ثيقة وبن يوسف كل مجهوداتهما لحصر

النار داخل الخيمة لا لتهمتهما وانمحى اسمهما من عالم الوجود

تصور ايها الشعب الكريم حال زعمائك في تلك الساعة الرهيبة وما قاسوه من عذاب في سبيل راحتك

وتصور حكومة الاستعمار التي منعتنا من نجدة اخواننا ومساعدتهم على اطفاء نار كادت ان تسلبهم الحياة وتصير اجسامهم رمادا وهي باسمة الثغر منشرحة الفؤاد

وهل وقف الاستعمار عند هذا الحد

لا بل تفنن في تعذيب المبعدين باساليب شتى وارتكب معنا ما لم يرتكبه غيره حتى في القرون الوسطى

ففي يوم ٣ مارس ١٩٣٦ احتج الاستاذ محيي الدين القليبي والسيد عبد السلام عقير على التنقيص من الجراية التي يتقاضونها كرفقائهم من الحكومة ليبتاعوا بها طعاما (وهي غطة عظيمة لعلمهم وان عدوهم لا يريد لهم إلّا الموت تحت السياط) فكان جزاءهم الحرمان . ها الى اليوم رجوعنا في ٢٤ افريل ١٩٣٦ فلو لم يجعل الله لهم مخرجا مما اريد بهما بما استعملته الرفقاء من الاساليب والحيل في سبيل وصول المساعدة لهم لما تواجوعا حسبما اراد الاستعمار الفرنسي الذي زعم وانه سيتوصل لاشفاء غليله منهم

وما مقدار هاته الجراية التي يتناولها كل منا ما عدا رئيسنا الجليل الدكتور الماطري وزعيم الامة الاستاذ الحبيب بورقيبة

هي ستة فرنك

وهل هذا المقدار من المال يكفي الضروري من حاجيات انسان يقيم في مجاهل الصحراء ؟؟

هـذا المقـدار الذي لا يكفـي الواحد منـا ثمن (سجاير) قد استكثره الاستعمار وصيره بعد الستة خمسة فرنكا ولا يقصد من وراء ذلك إلّا القضاء على حياتنا او نكوص نواصينا امامه ولكن خاب ضنه بما رآه من صبرنا وثباتنا حتى يوم رجوعنا الذي نشرت فيه رأية النصر على رؤوسنا متكللين بتاج الاخلاص وشرف الموقف وطهـارة الظمير فلله سبحانه الحمد والمنة فمنه التاييد والقوة

على الساعة العاشرة من هذا اليوم ورد علينا الاذن بالافراج وزالت من بين الخيـام الحواجز التي كانت حائلة بين اتصالنا مع بعضنا وتسابق المبعدون نحو خيمة رئيسنا الجليل وساعدنا الزمان على معانقة من ابعدتهم الحكومة بعدنا وهم السادة الشيخ محمد ابوزيتة وعلالة العويتي وحسونة القروي

فهذا اليوم المبارك يجب ان يكون يوم عيد بانتصار الحق على الباطل ويجب ان يطلق عليه - يوم النصر - وقبل الختام وجب علي ان انبه الشعب التونسي الكريم لما يجب عليه ان يكون على علم منه حيث ان الايام املت علينا دروسا صيرتنا على بصيرة من عاقبة امرنا... ما دمت تلك الدروس التي جاد بها الزمان علينا ماثلة امام انظارنا

اعلم ايها الشعب الكريم ان رجوعنا من مجاهل الصحراء انت السبب فيه بما اظهرته من الصلابة والتمسك بالعقيدة الوطنيـة

وزعمائك الذين اوذوا في سبيل سعادتك فلو لم يكن جهادك المتواصل ومواقفك المشهورة ومظاهراتك المتتابعة لما رجعنا

ولو لم يكن ثباتك امام عواصف الاستعمار وعدم اكتراثك بما ينتزعه من بين صفوفك من شبابك العامل بين حين وآخر ويلقي بهم في اعماق السجون او مجاهل الصحراء لما بقي لنسيم الحياة الينا سبيلا

فسر في طريقك ايها الشعب الكريم بما عهد فيك من الرصانة واستماعك لامر زعمائك الذين عاهدوا الله على قيادة سفينة قضيتك الوطنية المباركة وسط بحر اشتدت زوابعه واعاصيره ونـاطحت امواجه السحاب

وحانض على كل خطوة اجتزتها في سبيل حرية بلادك محافضة بصير بالعواقب وادفع من اراد انتزاعها منك دفاع الابطال الشاعرين بعظم مسؤولية تقهقرهم عند عدم قيامهم بالواجب فتونس اليوم تطلب منا الاتحاد والانتباه التام لمن عسى ان يدخل بين صفوفنا قصد ايجاد ثلمة فيها يتوصل منها لما يريده عدونا الاستعمار وابذل كل ما في وسعك لتكوين مكتب دعاية وجريدة بـ باريس ـ ليطلع الشعب الفرنسي النبيل على كل مـا حل بك من الاستعمار فالشعب الفرنسي ممن يقدرون الحرية حق قدرهـا بما ذاق من الم الرق والعبودية قبل ان تسيل من دماء ابنائه الانهار

ولا شك عندي ان الشعب الفرنسي سيكون من انصارك

العاطفين على قضيتك سيما في زمن سادت فيه سلطة الاكاجهة الشعبية التي نحن وأياها امام الاستعمار والفاشيسم سواء

فالى الامام يابن الكرام فدوام الحال من المحال سنة الله في ملكه فلا بد من يوم ترفرف فيه راية الاستقلال على ارض بلادك

الى حضرات القراء الكرام

اقدم كتابي هذا عنوان اخلاصي وحبي لابناء وطني العزيز بعد مقاساة اتعاب جمه وعقبات امكن لنا اجتيازه بما عرفه منا ابناء الوطن من العزم الحديدي والارادة الصلبة اذ لولا ذلك لما امكن لنا ابرازه في هاته الضروف الحالكة التي استحكمت فيها ازمة الطباعة

كان في الحسبان ابرازه اعظم حجما واغزر مادة والتوسع في الشروح والحواشي وهو ما كنا احضرنا اغلب مواده ولكن ما اعترضنا من الصعوبات الانفة والحرص على ظهور الكتاب اضطررنا الى اختصاره وحذف بعض المواضيع منه موطدين العزم على طبعه بحول الله تعالى ثانيا مهما سمحت الضروف كاملا غير منقوص وربما زدنا عليه ما يفتح الله به من زيادة الاطلاع وما نعثر عليه في بحثنا المتواصل في هذا الميدان

ولذا فالذي ارجوه من قراء كتابي هذا ان يتفضلوا بمراسلتي بما يعن لهم من الملاحظات او تنبيهي الى ما وقفوا عليه من الخطا

والزلل لكي اثبت لهم ملاحضتهم وآراءهم بهذا الكتاب في طبعته الثانية بشرط نزاهة النقد وافادة البحث .

هذا وقد وقعت اخطا مطبعية بعد اعمال الجهد في الاصلاح والتصحيح لا تخفى على فطنة القاري كما نلتمس من حضراتهم النظر الى هذا الكتاب بعين الرضاء والصفح مما عسى يعثرون عليه من الخطا والغلط فانه قلما ينجوا مؤلف من العثار وقديما قيل (من الف فقد استهدف) والانسان محل النقص والنسيان خصوصا وهذه باكورة اعمالي واول تاليف ظهر مني لعالم الوجود وخطوة اولى في هذا الطريق وسيرون مني في المستقبل الايام خطوات موفقة ان شاء الله ولا نالوا جهدا في افادتهم بما لم يسبق نشره ولم يتعرض له احد للنقد والبحث فان جهودي ووجداني قد كرستها للجهاد في سبيل تحرير « تونس » وقبل مغادرة هاته الصحيفة يجب ان نثبت هنا كلمة جادت بها يراع فيلسوف الشباب وزعيم الامة في السياسة والثقافة « الاستاذ الطاهر صفر » نثبتها خاتمة لهذا الكتاب كمعلقة شرف له وكوسام قلد به جيده ولذا نرى من العقوق ان لا نمتع القراء من نفاثته الساحرة

وهذه كلمته ابقاه الله

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE